[٥٦٤]

شهوع

كتاب فى ثقافة الأطفال

عبد التواب يوسف

شموع

كتاب فى ثقافة الأطفال

دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إهـــداء

إلى رواد ثقافة الأطفال
فى مصر والوطن العربى

الشاعر أحمد شوقى
وماذا يتحتم على الطفل قراءته من الشعر.

الكاتب كامل كيلانى
وماذا يتحتم على الطفل قراءته من النثر.

الإذاعى بابا شارو
وماذا يتحتم على الطفل سماعه فى الإذاعة.

الفنان حسين بيكار
وماذا يتحتم على الطفل مشاهدته من لوحات.

الدكتورة سهير القلماوى
وأحاديث جدتى وألف ليلة وليلة.

شوقـى ...
شاعرًا للأطفال

١ - شوقـى... شاعرًا للأطفال

أقبل الأمير «شوقى» من أرض عبقر، يمتطى صهوة حصانه الأبيض - أيكون الشعر حصـانًا أبيض؟ - ولم يختطف الأميرة، كما تقول الحكايات، لكنه اختطف خاطرة من هنا، وفكرة من هناك، ونظم منها عقودًا وقلائد، طوَّق بها عنق الأطفال، وحمل إليهم هداياه ودرره، نثرها عليهم فى سخاء.. بعضُ هدايا الأمير كانت طعامًا دسمًا، لم يكن يسيرًا عليهم أن يهضموه، كما كانت درره أغـلى من أن يدركوا حقيقة قيمتها إلا مع الزمن الطويل، ومـا أقصر عشرتهم له.. لكنه «أمير» و«طيِّب» و«حسن النية»، كان طفلًا كبيرًا يريد أن يمتع قبيلته من الأطفال، الذين يحبهم،

ويريد أن يعلمهم ويربيهم، ويأخذ بيدهم إلى طريق الخير والنور.. لكنه في بعض الأحيان يتخفى من ورائهم لكي يبصر الكبار بما ينتظرهم وراء منعطفات الطرق، فيلعن الغزاة، ويسب المستبدين وما من حساب، لأنه يتحدث ظاهريًّا إلى الأحباب، من الصغار.. ويترنم الأمير بكلمات حب لهم..

يا حماةَ الطفلِ خيرَ المحسنِين
يَدُكم فيها يدُ اللهِ المُعِين
انظرُوا حينَ توافى جمعكم
تجدوا في الجمعِ جبريل الأمين
ظلَّل الطفل ووافَاه على
مهرجان اللَّهِ عرش المرسلين

ويحدثنا عن أبنائه الثلاثة - أمينة، وعلي، وحسين:

يقولون لِم تُطرى عليًّا وأختَه ... وتنسى حسينًا والحُسين كريمُ
فقلت فؤادى للثلاثة منزل ... هما طنباه والحسين صَمِيمُ
ثلاثة أسباب لأُنسى ولذتى ... يبارك فيها مانحى ويديم
إذا ما بدَا لى أن أفاضلَ بينهم ... أبَى لىَ قلب عادل ورحيمُ
أحب صغارَ العالَمين لأجلهم ... ويعطف قلبى ذو أب ويتيم

إذًا، من منطلق الحب لصغار لعالمين، نظم الشاعر قصصه في قصائد، أغلبها يدور في دنيا الحيوان..

ويتصور البعض أن الأمير «شوقي»، عاش طفلًا مدللًا عمره كله،

وأن الطفولة قد امتدت به، أو بقى له جانب منها على مدى حياته، حتى فى شيخوخته، التى ازداد خلالها حبه للصغار، حتى إنه يقول فى قصيدته «مصاير الأيام» مترحمًا على أيام الطفولة.

ألا حبَّذا صُحبة المكتب ... وأُحْبب بأيَّامه، أحْبِبِ
ويا حبذا صبيةً يمرحُون ... عنان الحياة عليهم صبى
كأنهم بسمات الحياة ... وأنفاسُ ريحانها الطيِّب
فيا ويحهم هل أحَسّوا الحياة ... لقد لعبوا وَهْىَ لم تلعَب
تجرِّب فيهم وما يعلمون ... كتجربة الطِّب فى الأرنَب

وتبقى قصائد شوقى للأطفال، وتظهر ملونة جذابة، فى الذكرى الخمسين لوفاته، دليلًا حيًّا على خلودها، وقدرتها على مجابهة الزمن، فقد أهملها حتى صاحبها نفسه، وأسقطها من ديوانه ومن حسابه إبّان حياته، إلى أن قيض الله لها من رعاها: سعيد العريان، وصبرى السربونى، وعزالدين إسماعيل، ولسوف تبقى فى أيدى أبنائنا جيلًا بعد جيل، ولقد قرأها الجيل الذى عاصر ظهورها، وجيل بعده.. وها هى اليوم تعود، راكبة صهوة جواد عربى، لكى تعيد الأطفال إلى ساحة الشعر، ولكى يقبلوا عليه من جديد، لأننا نتألم - نحن أو الشعر - أن يغفله أبناؤنا وينصرفوا عنه...

٢ - شوقى... شاعرًا مجددًا!

يقول شوقى فى مقدمة الطبعة الأولى من «الشوقيات» (١٨٩٨)، وقد ظهرت فيها مقطوعاته ومنظوماته للأطفال، وكان ذلك لأول مرة فى تاريخ

أدبنا العربى: «جربت خاطرى فى نظم الحكايات على أسلوب «لافونتين» الشهيرة وفى هذه المجموعة شىء من ذلك، فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث، أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئًا منها، فيفهمونه لأول وهلة، ويأنسون إليه، ويضحكون من أكثره، وأنا أستبشر لذلك، وأتمنى لو وفقنى الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال فى البلاد المستحدثة: «منظومات قريبة المتناول»، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم.

والخلاصة أنى كنت ولا أزال ألوى فى الشعر على كل مطلب، وأذهب من فضائه الواسع كل مذهب. وهنا لا يسعنى إلا الثناء على صديقى خليل مطران، صاحب المنن على الأدب، والمؤلف بين أسلوب الإفرنج فى نظم الشعر وبين منهج العرب، والمأمول أن نتعاون فى إيجاد شعر للأطفال، وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية».

وقد استجاب كثيرون لهذه الدعوة، وما زالوا يستجيبون، إذ سار على درب الرائد الكبير لأدب الأطفال العرب بعض من آنسوا فى أنفسهم الموهبة والاستعداد، والرغبة فى أداء هذه الرسالة، من أمثال كامل كيلانى، وسعيد العريان ومحمد الهراوى،.. وكان للأمير شوقى فضل الريادة، والدعوة، كشاعر كبير، ومجدد..

وكان شوقى شاعرًا مجددًا، بحق، إذ فقد الشعر العربى الكثير من أصالته وروعته وبلاغته، خلال العصر العثمانى، الذى ساد وطننا عدة قرون، وجاء شوقى، ورعيل من معاصريه، لكى يعيدوا للشعر دولته، وصولته، وجزالته، ولكى يجددوا فى مجالاته وفنونه، وقد نظم البارودى

كشف الغمة فى مدح سيد الأمة، ونظم حافظ إبراهيم العمرية، ونظم شوقى قصيدته «كبار الحوادث فى وادى النيل»، وذلك سنة ١٨٩٤، وتأثر فيها بأشعار فكتور هوجو «أساطير العصور».. كما أن شوقى خاض تجربة المسرح الشعرى بأعمال عدة، مثل على بك الكبير، وعنترة، ومصرع كليوبترا، وكان شوقى الشاعر مجددًا حين نظم الزجل والمقطوعات الغنائية العامية ذات الجرس الحلو والخيال البديع، وقد غناها محمد عبد الوهاب، ومن قبله محمد عثمان، وعبده الحامولى، وآخرون.. وتفرد شوقى بقصائده للأطفال، ويعتبر رائدًا فى هذا المجال، فما توجه قبله أحد بشعره وقصصه للأجيال الناشئة، مستهدفًا بذلك تعليم الأطفال وتثقيفهم، وقد حفزه إلى ذلك عميق حبه للأطفال عامة، ولأبنائه خاصة، وقد لفت نظره إلى ذلك ما قرأه من أدب للأطفال خلال بعثته إلى فرنسا، وكانت أقاصيص شارل بيرو شائعة فى ذلك الحين، كما أن حكايات لافونتين كانت على كل لسان..

لذلك أقدم على نظم قصص الحيوان، ومقطوعات أخرى لكى تقرأ للأطفال، ولكى ينشدوها فى المدارس، ويتغنوا بها.. وقد نشرت أغلب هذه القصائد فى الطبعة الأولى من الشوقيات عام ١٨٩٨، وأشار إليها فى المقدمة.. ثم أعاد نشرها فى الطبعة الثانية عام ١٩١١، ولكن هذه الحكايات أغفلت فى الطبعات التالية، وكان من الممكن أن تندثر، لولا أن «محمد سعيد العريان» تحمس لها، ووضعها فى الجزء الرابع من الشوقيات الذى نشر عام ١٩٤٣، وأضاف إليها العريان بعض أناشيد شوقى وأغنياته للأطفال.. وعثر «د. محمد صبرى السربونى» على حكايات شعرية أخرى لشوقى، نشرها فى كتابه «الشوقيات المجهولة» الصادر

عام ١٩٦١..، وبذلك وصلت إلى أيدينا قرابة السبعين قصة فى نحو ألف بيت، بعضها يصلح للأطفال، والبعض الآخر لم يكن لهم..

ومن قصائده التى كان جيلى يحفظها، ويرددها، وتحتويها كتب المطالعة المدرسية - قبل أن يستولى عليها مفتشو وزارة المعارف، ورجال التربية فأصبحت لا تتضمن إلا كتاباتهم - قصيدة اليمامة و الصياد.

الْيَمَامَةُ وَالصَّيَّادُ

يَمَامَةٌ كانتْ بأَعْلَى الشَّجَرَهْ ... آمِنَةً فى عُشِّهَا مُسْتَتِرَه
فأَقْبَلَ الصَّيَّادُ ذاتَ يَوْمٍ ... وحامَ حَوْلَ الرَّوْضِ أى حَوْمِ
فَلَمْ يجِدْ لِلطَّيْرِ فيهِ ظِلَّا ... وَهَمَّ بالرحِيلِ حِينَ مَلَّا
فَبَرَزَتْ مِنْ عُشِّهَا الْحَمْقَاءُ ... والْحُمْقُ داءٌ مالَهُ دَوَاءُ
تقولُ جَهْلًا بالَّذى سيَحْدُثُ: ... يَأَيُّهَا الإنْسانُ عَمَّ تَبْحَثُ؟
فالْتَفَتَ الصَّيَّادُ صَوْبَ الصَّوْتِ ... ونَحْوَهُ سَددَ سَهْمَ المَوْتِ
فسَقَطَتْ مِنَ عَرْشِها الْمَكِينِ ... ووقَعَتْ فى قَبْضَةِ السِّكِّينِ
تَقُولُ قَوْلَ عارِفٍ مُحَقِّقِ: ... «مَلَكْتُ نَفْسِى لو مَلَكْتُ مَنْطِقِى!»

٣ - شعر الأطفال
بين أنصاره ومعارضيه

فى المؤتمر الذى عقده «المكتب الدولى لكتب الأطفال» فى أثينا عام ١٩٧٦، تساءل البعض:

- هل «الشعر» ضرورة للأطفال؟!

ودارت مناقشات مستفيضة حول هذه القضية، وظهر أن لشعر الأطفال معارضين، ومؤيدين.. وكل له حجته.

إن النغم صفة مميزة للشعر، يسهل إدراكها وتقييمها، ولو أنه قد يكون موجودًا فى غير الشعر، بل قد لا يخلو منه النثر أيضًا، ولكن القيمة التى ينفرد بها الشعر فى ميدان الأدب هى التركيز.. مما يدفع البعض للقول إن هذه الناحية تجعل الشعر صعب الفهم بالنسبة للأطفال، ولكن الواقع أن ما يجتذب الأطفال بوجه عام الاقتضاب إلى جانبى الاتجاه المباشر عند بحث الأشياء التى يألفونها، ثم إنه لا توجد قيود على الموضوعات التى يعالجها الشعر، إذ أنه يعالج أى شىء تحت الشمس، ولكن الطريقة التى ينبغى أن يعالج بها هذه المحتويات هى التى تخضع للتحديد، فالقدرة الفنية تقتضى التعبير عن الكثير فى كلمات قليلة، واستثناء عدد كبير من الخبرات فى سطر واحد وتوضيح أن ما ترك دون ذكر، لا يقل دلالة عما ذكر، وكل يحتاج إلى مهارة فائقة فى استخدام الكلمات، وإذا كانت القافية والنغم والأسلوب - مع مالها من أثر فى التركيز المطلوب - عناصر مقيدة للشاعر، إلا أنها فى نفس الوقت ذات أثر كبير فى إرشاد المستمع أو القارئ ، ويستطيع المصلحون أن يعينوا الأطفال على أن يحبوا الشعر، فى ضوء مساعدتهم لهم على إدراك الحقيقة التالية، وهى أن الشاعر يكتسب صفته كشاعر لأنه يرى أكثر من غيره، ولأنه يستطيع أن يتحدث عما يراه بأكثر الطرق اختصارًا وأقربها إلى الموسيقى.

على أنه سرعان ما تغلب أنصار شعر الأطفال على معارضيهم.. كانت حجتهم البليغة «الطفل ذاته»..

إن الطفل، حتى وعمره عام واحد، يتوقف عن حركاته واهتزازاته إذا هو سمع مقطوعة من الشعر: منغمة، ملحنة، موقعة، مغناة، وبعدها قد تضيء وجهه ابتسامة حلوة، الأمر الذى يؤكد التأثير السحرى للشعر.. ولو أننا أعدنا على مسمعه ذات المعانى بدون تنغيم، أو توقيع فلن يعيرها اهتمامًا أو التفاتًا.. والصغار، الذين يتقافزون كالقرود لو قرأنا عليهم شعرًا جيدًا لاستكانوا، وهدءوا، وثبتوا فى أماكنهم، وتوالت على وجوههم ألوان شتى من الانفعالات.. وسرعان ما تلتصق بآذانهم، فيرددونها، حتى لتصبح جزءًا لا يتجزأ من مكوناتهم، ولا ينسونها أبدًا.. إنهم لا يستوعبونها معنى، وفكرًا، لكنهم بدون شك يستمتعون بها، وبوقعها، وبلغتها، والصور التى ترسمها، فهى تثير الخيال، وتفتح أمامه آفاقا لا تحد.. وقراءة الشعر للأطفال سوف تثبت أنه من أحب الأشياء إلى نفوسهم وتكرار قراءته سيؤكد هذه الحقيقة، لكن السؤال الذى يطرح نفسه:

- ماذا نقرأ لهم، ومن يقرأ هذا الشعر إذا عثرنا عليه؟!

قليل ذلك الشعر الذى كتب للأطفال بالعربية، والأمية نسبتها مرتفعة بين الأمهات كما أن المعلمات، والمعلمين، لأطفال المرحلة الابتدائية منصرفات عن الشعر، وكذلك أجهزة الإعلام والمثقفين فى الأندية والتجمعات..

ولا نقول: إن «كل» الأطفال يحبون الشعر، لكن أغلبهم يحبون الاستماع إليه، كالموسيقى.. ونؤكد أن كل طفل يجد فرصة لسماع الشعر سيتعلق به، والتجربة تؤيد هذا.. فما عرفت طفلًا لا يستمتع بالشعر إذا

قرأناه عليه.. ونحن نردد دائمًا «قال الشاعر»، وقلما نذكر عبارة «كتب الشاعر»، لأن الشعر «فن قولى»، وهو كالموسيقى: يقال ليستمع إليه، أكثر مما يقال ليقرأ قراءة صامتة فى ديوان.. إنه فارق دقيق، لكنه يعنى الكثير بالنسبة للأطفال، خاصة هؤلاء المبتدئين فى القراءة، إذ أنهم يتعثرون فى تلاوة الشعر المكتوب، فيفقدون موسيقاه، حتى أولئك الذين هم فى التاسعة والعاشرة يحدث معهم هذا، ولا يجيدون قراءة الشعر بأوزانه، فيضيع منهم أجمل ما يحبونه فيه..

والأطفال يقبلون على الشعر البسيط، الذى يروى قصة، ويكون فكاهيًّا مرحًا، كما أنهم يفضلونه فى صورة «غناء» أو «نشيد» أى التى تحاكى حركة إنسان، أو حيوان، أو ماكينة أو أى شىء أو التى تحكى قصة عمل، كعمل البنَّاء، أو السائق، أو العامل (الحداد) أو التى تصف الفصول والتحولات المنظورة وصفًا دراميًّا... الخ. كما أنهم يميلون إلى أن يكون قصيرًا.. وأغلب الشعر الفكاهى للأطفال يدور حول الحيوان.. ونحن نعرف أن الطفل يحب القصة، فإذا ما اجتمعت هذه العناصر: الشعر، والفكاهة، والحيوان، والقصة، فلا شك أننا سنجتذب إلينا الطفل ونكسبه إلى صفنا..

وقد فعل شوقى كل ذلك فى قصائده للأطفال وكسب بها أجيالاً عدة.

٤ - القصص الحيوانى فى الأدب العالمى

القصص الحيوانى هو ذلك الفن الرفيع من فنون الأدب، الذى اعتد به القدماء، والمحدثون من الأدباء، من كتاب وشعراء، وبذلوا فى سبيله

جهودًا جبارة موفقة حتى اتقنوه وأحكموه.. وهى فى أروع حالاتها وأعلى درجاتها حكايات مستطرفة وأحاديث، مستملحة، تتضمن أقوالاً وأفعالاً تعزى إلى الحيوانات، ويقصد منها تهذيب الأخلاق، وتقويم السلوك، وإذاعة الآداب الراقية، ونشر الحكم الصالحة بطريقة جذابة وأسلوب مؤثر خلاب..

وكان الشائع فى العصور الماضية أن أيسوب هو أول من ابتكر هذا الفن القصصى، لكن معظم المؤرخين وعلماء الاجتماع فى عصرنا الحاضر، يرون أن عهد ظهور القصص الحيوانية أبعد، وأقدم بكثير من عهد أيسوب.. لأن الإنسان ميال بطبعه منذ أقدم العصور إلى التعبير عن أفكاره، وعن المعانى التى تعن له بوسائل مادية وطرق حية.. ويبدو أن القصص الحيوانية لم يكن يقصد بها فى أول الأمر إلا التسلية والفكاهة، مع التعريف ببعض الحيوانات وطرق معيشتها، دون نظر إلى مغزى، أو قصد إلى موعظة خلقية.. وظهرت حكايات الحيوان الخلقية والوعظية متأخرة، وبعد الشرق مصدرها.. وقد بدأت بما نسميه «الحكايات السببية»، إذ كان القدماء غير قادرين على تفسير الكثير من الظواهر: لماذا هذا السنام فوق ظهر الجمل؟ لم طال عنق الزرافة؟ ما السر فى وجود خرطوم الفيل؟!.. لقد ابتكروا لذلك أسبابًا وتفسيرات شبيهة بقولهم: إن النيل يفيض من دموع إيزيس، وإن الرعد خيل تركض فى السماء، وهكذا.. ورويت هذه الحكايات شفاهًا، وتناقلتها الأجيال، والتقط ريدارد كبلنج - الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٠٧ - بعضًا منها وسجله فى كتبه..

وتعتبر «بنچه تانترا» أى «الفصول الخمسة» أقدم ما وصل إلى أيدينا

من قصص الحيوان عند القدماء، وكانت باللغة السنسيكرتية، وعنها اقتبست بعض حكايات كليلة ودمنة.. ويبدو أن كتابة قصص الحيوان ترجع إلى قربها من الإنسان ولأن لها طباعًا معروفة ثابتة لدى كل البشر، وعادات مألوفة لجميع الناس.. القط قط فى كل زمان ومكان، أما البشر فيختلفون فى اللغة، والعادات، والتقاليد، والشرائع.. إلخ، فمن يتحدث عن الذئب والحمل، أو عن الأسد والثور، يتحدث إلى الناس جميعًا، كما أن المشاركة الوجدانية عند الإنسان تجعل من الصعب عليه أن يصدر أحكامًا خلقية صريحة ناضجة، خالية من شوائب التحيز لأخيه الإنسان أو ضده، ولذا كانت القصص الحيوانية الخيالية، الخالية من تدخل عنصر الإنسانية، ومن عاطفة محبة النوع الإنسانى أقوى تأثيرًا، وأعلى شأنًا، وأصدق تصويرًا للحياة والأخلاق الإنسانية.. هكذا كان يرى الشاعر الألمانى لسنج.

على أن البعض يرى أن هذه القصص نشأ عن عقيدة كانت ثابتة فى نفوس الأقدمين، تلك هى القول بتناسخ الأرواح ما بين الحيوانات وما بين البشر، الأمر الذى وصل بهم إلى تقديس بعض أنواعها، وخلق حكايات أسطورية حولها، كالجعران عند قدماء المصريين، وتصورهم أنه يخلق نفسه بنفسه، والبقرة عند الهندوس.. إلخ، وتطورت هذه القصص، ونمت، واستخدم بعضها لتدريب الأطفال على التعرف على الحيوانات، وتنبيهه للمفترس منها، والمستأنس الصديق.. وكانت هذه القصص تستهوى الأطفال كثيرًا، خاصة فى السن المبكرة، فهم شغوفون بالحيوانات ويرونها قريبة الشبه منهم، فيألفونها ويقتربون منها كثيرًا، بل كثيرًا ما يحدثونها، ويتكلمون إليها..

ويتبقى السبب السياسى الذى يكمن وراء سرد القصص الحيوانى، إذ يلجأ الكاتب إلى رواية قصص رمزى، يهاجم فيها خصومه، ويكشف عن سيئاتهم، من خلال استعمال التشبيه والمجاز والكناية وما إليها.. ويستمتع القارئ بهذه القصص، وهو قادر دائمًا على استخدام ذكائه فى الكشف عما يريده الكاتب.. والمستبدون من الحكام والمستعمرين يضيقون ذرعًا بهذا اللون من القصص الحيوانى، وقيل إن ابن المقفع دفع حياته ثمنًا لكتابة كليلة ودمنة، إذ أهديت له حلة مسمومة قضت عليه..

٥ – شـوقى
وقصص «كليلة ودمنة»

تأثر شوقى، بلا شك، بقصص كليلة ودمنة، تـأثرًا كبيـرًا وواضحًا، ويقول د. على الحديدى فى كتابه (فى أدب الأطفال).. «أما الذى يدعو للدهشة فإن شوقى يعلن أنه قرأ حكايات (لافونتين)، ويصرح بأنه تأثر به، فجرب خاطره فى نظم الحكايات للأطفال على أسلوبه وطريقته – كما جاء فى مقدمته للطبعة الأولى من الشوقيات – ولم يذكر شيئًا عن قراءته أو تأثره بـ (كليلة ودمنة) المصدر الأصيل لأدب الحيوان، والمنبع الذى تأثر به أدباء العالم وعلى رأسهم (لافونتين) نفسه. ويقول فى مقدمة الجزء الثانى من حكاياته: (ليس من الضرورى فيما أرى أن أذكر المصادر التى أخذت عنها هذه الحكايات الأخيرة، غير أنى أقول اعترافًا بالجميل: إنى مدين فى أكثرها للحكيم الهندى بلباى – بيدبا – الذى ترجم كتابه إلى كل اللغات) وكذلك نجد (لافونتين) الفرنسى يعتز بتأثـره بحكايـات بيدبا، ويعترف بجميلها عليه، بينما (شوقى) ولابد أنه قرأها فى مصدرها

الأصلى (كليلة ودمنة) - يتجاهلها ولا نسمع لها منه ذكرًا، وأقرب التعليلات إلى الذهن أن (شوقى) وجد أن تأثره بحكايات (لافونتين) أقوى من تأثره بكليلة ودمنة. ذلك لأن (لافونتين) بلغ بحكايات الحيوان أقصى ما قدر لها من كمال فنى، فشوقى أخذ من لافونتين الخصائص الفنية والأسس والقواعد العامة لهذا اللون من الأدب، بينما كليلة ودمنة لم تقدم إلا مادة بعض موضوعاته، التى تصرف فيها حسب مقتضيات فن أستاذه، وظلت الأسس والخصائص الفنية غريبة الوجه والصورة. ومن ناحية أخرى فإن ارتباط شوقى وهو فى مطلع الحياة - إذ نظم هذه الحكايات قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره - بأديب غربى طبقت شهرته الآفاق فى هذا المجال، لابد وأن يعكس عليه قدرًا من هذه الشهرة فيقبل عليه القراء، خاصة والناس فى ذلك الوقت قد تفتحت لهم أبواب الثقافة الغربية، فبهرتهم وخطفت أبصارهم، وجعلتهم ينظرون إلى كل ما هو غربى نظرة إكبار وتقدير»..

ونحن نتفق مع د. على الحديدى فيما قاله من أن شوقى (لم يذكر شيئًا عن قراءته أو تأثره بـ «كليلة ودمنة»)، لكننا نختلف معه فى تعليله لذلك، فإن شوقى فى ذلك الحين كان لدى قراء العربية أشهر من (لافونتين)، وقد نظم (شوقى) قصيدة تصدرت كتاب (زعموا أن.. أو كليلة ودمنة بالصور) نظم الشيخ «محمد عبد الرحيم ترة» (١٨٨١ - ١٩٣١)، ويقول شوقى فى هذه القصيدة:

بيان ابن المقفع عاد شعرًا ... وفصل بالحقيقة والصواب
أتى «عبد الرحيم» به فصولاً ... روائع فى التحاور والخطاب

شوائق كالدُّبى تحت الفوادى	روائق كاليناييع العذاب
تطوف عليْك من كَرم القَوافِى	ألذ من الغِناء على الشراب
جزاك الله (ترة) كل خير	عن النشء المثقَّف والشباب
وعن أحكام آداب غوال	تروع العقل فى هذا الكتَاب

هذه الأبيات تؤكد أن «شوقى» توفر على قراءة «كليلة ودمنة»، بل وقرأ قصصها نظمًا فى هذا الكتاب، الذى نرى أن صاحبه قد استجاب لدعوة شوقى «والمأمول أن نتعاون على إيجاد شعر للأطفال»، والتعليل البسيط لإغفال شوقى ذكر «كليلة ودمنة» أنها كانت فى ذلك الحين أشهر من أن يشار إليها، وربما فاتته الإشارة إليها، وجل من لا يسهو..

٦ - مصادر شوقى فى شعره للأطفال

كانت هناك مصادر أربعة لشعر شوقى فى الحيوان: الأول: حكايات لافونتين.. والثانى: القصص الدينى، والثالث: هو التراث العربى، أما الرابع فهو من تجاربه الخاصة.. وسنعطى نموذجا لكل لون من هذه الألوان..

(أ)

اقتبس شوقى حكاية (الديك والثعلب) عن لافونتين.. وهى تحكى قصة ثعلب أراد أن يخدع ديكًا يقف فوق الشجرة، فألقى إليه بالتحية، وأعلن أنه قد جاء لينقل إليه خبر استتباب السلام بين الحيوانات، وانتهاء عدوان بعضها على البعض، وسأله أن ينزل من على الشجرة

ليحتفلا بهذه المناسبة، غير أن الديك الذكى أشار إلى بعيد قائلاً إن كلاب الصيد قادمة من بعيد لتشارك فى الاحتفال، فأسرع الثعلب بالهرب معلنًا أن عنده موعدًا، وأنه يخشى ألا تكون الكلاب قد سمعت بأمر السلام الجديد..

وقد نظم شوقى هذه الحكاية، وأضفى عليها الكثير مما عنده، ووضع فيها لمسات دينية، وعربية، تجعلها قريبة من نفوس أبنائنا.. يقول شوقى:

الثعلب والديك

برزَ الثعلبُ يومًا ... فى شعارِ الواعِظينا
فمشى فى الأرض يهْدى ... ويسب الماكرينا
ويقول الحمد لله ... إله العالمينَا
يا عبادَ اللَّهِ توبُوا ... فهو كهْف التائِبينا
وازهدوا فى الطير إنَّ الـ ... ـعيشَ عيشُ الزاهدينا
واطلبوا الدِّيك يؤذِّن ... لصلاة الصُّبحِ فينَا
فأتى الديكَ رسولٌ ... من إمام النَّاسكينا
عرض الأمْر عليه ... وهو يرجو أنْ يَلِينَا
فأجاب الديك: عذرًا ... يا أضلَّ المهتدينا!
بلِّغ الثعلَب عَنِّى ... عن جدودى الصَّالحينا
عن ذوى التِّيجَان ممن ... دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا وخير ... القول قول العَارِفينا:
«مخطىءَ من ظنَّ يومًا ... أنَّ للثعلب دينَا!»

(ب)

ومن التراث الدينى يتخذ أحمد شوقى من (سفينة نوح) مسرحًا لتسع قصص فى قصائد. و«القرد فى السفينة» هى فكرة الراعى الذى كان يزح ويصرخ: الذئب الذئب، وعندما جاء الذئب لم يصدقوه، ففتك بالماشية، والقصة مقتبسة من لافونتين، أضفى عليها شوقى الطابع الدينى.. وفى قصة (نوح والنملة)، تود هذه أن تلى أمور السفينة، ويضحك نوح منها ويشبهها بالإنسان الذى يتصور أنه قادر على أن يسوس الزمان!، ويحكى شوقى فى قصة «الدب فى السفينة» كيف أساء هذا الظن بما يجرى، ولم يمتثل بأمر نوح فألقى بنفسه فى الماء، وعندما جاءه الموت بطيئًا، كانت السفينة ترسو إلى شط الأمان.. أما (الثعلب فى السفينة» فيعلن توبته، لكنه ما إن ينزل إلى الأرض حتى يعود إلى طبعه الخبيث حانثا بيمينه، فيأكل رفاقه الذين أقسم لهم أنه لن يمسهم بسوء..

وخلال رحلة السفينة وعد الليث صديقه الذئب بأن يجعله والى الولاة إذا نجت السفينة، وعندما نجت السفينة أقبل الذئب على الليث يذكره بوعده، فيتنكر له هذا، ويسأله عمن يكون، ويجيبه الذئب بأنه والى الولاة سابقًا!.. وأعلن الثعلب توبته وهو على ظهر السفينة، وقال إنه عفٌ عن أكل أرنب كان يلعب تحت منزله، لكن الأرض كشفت عن السر: كان الثعلب يومئذ يكاد يموت من التخمة. لا لأكثر ولا أقل.. وكانت الأرنبة حاملًا، وعندما جاءها المخاض، أعلنت «بنت عرس» أنها ستساعدها لأنها كانت «داية»، لكن الأرنبة ترفض، وتأبى إلا أن تكون القابلة من بنات جنسها، ويختتم شوقى حكايات سفينة نوح بحكاية الحمار الذى

سقط بين الأمواج وبكاه رفاقه، لكن موجة ردته إليهم، لأنه لا يُهضم!

ويحكى أمير الشعراء أربع قصص عن سيدنا سليمان والطير، وتدور حول: الهدهد، والطاووس، والحمامة، ثم البلابل التى رباها البوم.. إن الهدهد يشكو من حبة قمح وقفت فى زوره، واستنجد بسيدنا سليمان:

سليمان والهدهد

وقف الهدهد فى بـا ... ب سليمان بذِلَّه
قال يا مولاى كن لى ... عيشتى صارت مُمِلَّه
مت من حبة بر ... أحدثت فى الصدر غلة
لا مياه النيل ترويها ... ولا أمواه دِجْلة
وإذا دامَت قليلاً ... قتلتنى شر قِتْلة!

* * *

فأشار السيد العا ... لى إلى منْ كانَ حوله:
قد جنى الهدهد ذنبًا ... وأتى فى اللؤْم فِعله
تلك نار الإثم فى الصد ... ر وذى الشكوى تعله
ما أرى الحبة إلا ... سرقت من بيت نمله
إن للظالم صدرًا ... يشتكى من غير عِلَّه!

ويشكو الطاووس من حرمانه من جمال الصوت، ويلجأ إلى سيدنا سليمان كى يمنحه هذه الهبة، غير أن نبى الله يعرف عن يقين مدى غرور الطاووس، فيقول له:

فلو أصبحت ذا صوت لما كلَّمت إنسانًا!

وكانت الحمامة ساعى البريد لسيدنا سليمان، لكنها فضت رسالة تحملها، دفعها إلى ذلك حب الاستطلاع، وعادت محرجة إلى سيدنا سليمان تعلن عن فقد الرسائل التى كانت كلها لتكريمها شخصيًا، لكنه أدرك حقيقة ما حدث، وقال لها..

«من خَانَ خانَتْهُ الكَرامَةُ»!

وتحكى القصة الرابعة حكاية مجموعة بلابل أعطاها سيدنا سليمان إلى البوم لتربيتها.. وإذا بها بعد حين تكف عن التغريد والغناء، فأراد أن يذبحها لخرسها، لكن الهدهد اعتذر عنها لسيدنا سليمان قائلاً:

بلابل اللَّهِ لم تخرس ولا وُلِدَتْ خُرْسًا ولكنَّ بوم الشؤم رباها..

ونحن نلمس بوضوح أن «شوقى» وضع من عنده أفكار هذه القصص، مستلهمًا التراث الدينى، ولم يلجأ للقصص التى رواها القرآن الكريم عن سيدنا نوح وسيدنا سليمان، فقط هو استثمر وجود الحيوانات على سفينة نوح، وألف عنها حكاياته.. كما أنه استفاد من معرفته لقدرة سيدنا سليمان على التحدث إلى الطير، فكتب قصصه حولها.. ومما لا شك فيه أنه فى حكاياته وقصصه - ذات الطابع الدينى - كان مبدعًا وخلاقًا، ولا يقلل من قيمتها تلك الحكم والمواعظ التى كان يختم بها قصائده، فقد كان ذلك سمة غالبة على ما ينشر حتى فى أوربا فى ذلك الحين، إذ كانت حكايات إيسوب ولافونتين وجريم فى أواخر القرن الماضى، توضع بين أيدى الأطفال، وقد سطر فى نهايتها بحروف بارزة «المغزى» والهدف منها، بقصد التعليم والتهذيب والتربية.. وإن كانت

التربية الحديثة تقول بأن هذا لا يجدى كثيرًا، وأننا مطالبون فقط بأن نترك فى نفوس الأطفال انطباعًا عامًّا بأن الخير دائمًا منتصر على الشر، وأن نرسب فى قلوبهم وعقولهم أن الفضيلة تهزم الرذيلة فى المدى البعيد.. كما أنه لا يفوتنا أن نذكر أن كثيرين من شعراء العربية القدامى كانوا يختمون قصائدهم بالحكمة والموعظة الحسنة..

(جـ)

وكان المصدر الثالث هو التراث العربى، وفيه الكثير من الخرافات المروية على ألسنة الحيوان، وتشير د. نفوسة زكريًا إلى حكاية «الصياد والعصفورة» التى أوردها وهب بن منبه فى كتابه التيجان، ونقلها عنه ابن عبد ربه فى العقد الفريد فى كتاب «الجوهرة فى الأمثال» تحت عنوان «مثل فى الرياء».. وهذا نصها.. (نصب رجل من بنى إسرائيل فخًا، فجاءت عصفورة فنزلت عليه، فقالت:

– مالى أراك منحنيًا؟!

قال: لكثرة صلاتى انحنيت.

– فمالى أرى هذا الصوف عليك؟

قال: لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف.

– فما هذه العصا عندك؟

قال: أتوكأ عليها وأقضى حوائجى.

– فما هذه الحبة فى يدك؟

قال: قربان إنْ مرَّ بى مسكين ناولته إياها فخذيها!

ودنت فقبضت على الحبة، وإذا الفخ أعنقها، فجعلت تقول:

- قعى قعى..

(وتفسيره لا غرنى ناسك مراء بعدك أبدًا)

وقد نظم شوقى هذه الحكاية قائلًا...

الصياد والعصفورة

حكاية الصياد والعصفورة ... صارت لبعْض الزَّاهدِين صُورَه
ما هزءوا فيها بمستحق ... ولا أرَادُوا أولياء الحق
ما كل أهل الزهد أهلُ الله ... كم لاعبٍ فى الزاهدين لاهِ
جعلتها شعرا لتلفت الفطن ... والشعر للحكمة مذكان وطن
وخير ما ينظم للأديب ... ما نطقته ألسن التجريب

* * *

ألقى غلال شركًا يصطاد ... وكل من فوق الثرى صياد
فانحدرت عصفورةٌ من الشجر ... لم ينهها النهى ولا الحزم زجر
قالت: سلامٌ أيها الغلام ... قال: على العصفورة السلام
قالت: صَبىُّ منْحَنى القناة! ... قال: حنتها كثرةُ الصلَاة
قالت: أراك بادى العظام! ... قال: برتها كثرة الصِّيام
قالت: فما يكون هذا الصوف ... قال: لباس الزَّاهد الموصُوف
سلى إذا جهلت عارفيه ... فابن عبيد والفضيل فيه
قالت: فما هذى العصا الطويلة ... قال لهاتيك العصا سليله

أهش فى المرعى بها وأتكى ... ولا أرد الناس عن تبرك
قالت: أرى فوق التراب حَبًّا ... مما اشتهى الطير وما أحبا
قال: تشبهت بأهل الخير ... وقلت أقرى بائسات الطير
فإن هدى الله إليه جائعًا ... لم يك قربانى القليل ضائعًا
قالت: فجدلى يا أخا التنسك ... قال: القطيه بارك الله لك
فصليت فى الفخ نار القارى ... ومصرع العصفور فى المنقار
وهتفت تقول للأغرار ... مقالة العارف بالأسرار:
إياك أن تغتر بالزهاد ... كم تحت ثوب الزهد من صياد

(د)

وكان شوقى مبدعًا وخلاقًا فى الكثير من مقطوعاته الشعرية للأطفال، وقد يصعب علينا أن نحدد تلك القصائد التى ألفها من عنده، فلا قدرة لأحد على الإحاطة بكل حكايات التراث، وخرافات أيسوب ولافونتين، وربما أخذ الفكرة وصاغها بطريقته فتبدو جديدة.. إن «جزاء الإحسان بالكفران» الواردة فى (الشوقيات المجهولة) يمكن أن تكون من إبداعه، وفيها يقول:

رأيت على صخرة عقربًا ... وقد جعلت ضربها ديدنا
فقلت لها: إنها صخرة ... وطبعك من طبعها ألينا
فقالت: صدقت ولكننى ... أردت أن أعرفها من أنا

كما أن مقطوعة مثل «ضيافة قطة»، نشعر معها أنها تجربة خاصة، ففيها:

ضيفة قطة...

لستُ بناسٍ ليلة من رمضانَ مرَّتِ
تطاولتْ مثل ليا لى القُطبِ وَاكْفَهَرَّتِ
إذ انْفلَتُّ من سحو رِى فدخلت حجرتى
أنظرُ فى ديوانِ شعرٍ أو كتابِ سيرةِ
فلم يرعنى غير صو ت كمُواء الهِرَّة
فقمت ألقى السمع فى الستور والأسرَّةِ
حتى ظفرت بالتى علىَّ قد تَجَرَّت
فمذ بدت لى والتقَتْ نظرتُها ونظرتى
عاد رمادُ لحظِهَا مثل بصيصِ الجَمْرَة
وردَّدَتْ فحيحَها كحنش بقفْرَةِ
ولبست لى من ورا ءِ الستر جلدَ النِّمْرة
كَرَّتْ، ولكن كالجبا نِ قَاعدًا، وفرَّتِ
وانتفضت شواربًا عن مثلِ بيت الإبرة
ورفعت كفًّا وشا لَتْ ذنبًا كالمِذْرَة
ثم ارْتَقَتْ عن المُوا ءِ فعوَتْ وَهَرَّتِ
لم أجْزِها بِشرَّةٍ عن غصب وَشِرَّة
ولا غبيتُ ضعْفَها ولا نَسِيتُ قدْرَتِى
ولا رأيتُ غيرَ أمٍّ بِالبنينَ بَرَّةِ

رأيتُ ما يعْطِفُ نفْـ ـسَ شاعرٍ من صورة
رأيتُ جِدَّ الأمَّهـا تِ فى بناءِ الأسرَةِ
فلم أزل حتى اطمأنَّ جَأْشُها وقرَّتِ
أتيتُهَا بِشَرْبَةٍ وَجِئْتُهَا بِكسرة
وَصُنْتُهَا من جانبى مرقدِهَا بَستْرتِى
وزدتها الدفء فقرَّ بْتُ لهَا مَجْمَرَتِى
ولو وَجدْتُ مِصْيَدًا لَجِئتُها بفَأْرَة!
فاضطجعَتْ تَحْتَ ظلا لِ الأمن وَاسْبَطَرَّتِ
وقرأتْ أورَادَهَا ومادَرَتْ ما قَرتِ
وسَرَح الصِّغَارُ فى ثُدَيِّهَا فدرَّت
عُرْىُ نجُومٍ سْبَّحَ فى جنَبَاتِ السُّرَّةِ
اختلَطُوا وعبَّثُوا كالعِمْىِ حَوْلَ سُفْرَةِ
تحسبهم ضفَادِعًا أرسلْتَهَا فِى جَرَّة
وقلتُ لا بَأْسَ عَلَى طِفْلِك ياجُوَيْرَتِى
تَمَخَّضِى عَنْ خمْسةٍ إنْ شئْتِ أوْ عن عَشْرَةِ
أنتِ وأولادُك حتَّى يكْبَرُوا فى خفرَتِى

الأغنيات والأناشيد

نظم شوقى «مجموعة من الشعر السهل لتكون للأطفال أدبا وثقافة»، ونشرت فى الجزء الرابع من الشوقيات، بعضها يدور حول الحيوان، مثل «الهرة والنظافة» و«الرفق بالحيوان» و«ولد الغراب» و«الوطن» وهى

لا تختلف كثيرًا عن قصص الحيوان والبعض الآخر يتحدث عن الأسرة: «الجدة» و«الأم».. كما تحدث عن «النيل» و«المدرسة» ونظم عدة أناشيد منها «نشيد مصر» و«نشيد الكشافة» و«نشيد الشبان المسلمين» والأخير نشر فى (الشوقيات المجهولة).. ونحن مع القائلين بأن شوقى لم يوفق فى هذه الأناشيد وتلك الأغنيات، ليس لأن الكلمات من خارج قاموس الطفل فحسب، بل لأن العبارات والتراكيب صعبة معقدة، فضلًا عن أنها مباشرة بشكل واضح.. يقول فى نشيد المدرسة..

أنا المدرَسَةُ اجْعَلْنِى كَأُمٍّ لا تَمِلْ عَنِّى
أنا المصباحُ للفِكْرِ أنا المفتاحُ للذِّهْنِ
أنا البابُ إلى المَجْدِ تَعالَ ادخل على اليُمْنِ

ولعل نظمها فى المناسبات المختلفة كان وراء خلوها من الصور والمشاعر، الأمر الذى جعلها تتفق مع المناسبة، ولا تتناسب مع الأطفال..

نشيد الشبان المسلمين:

العزُّ للإسْلَام مَنارةُ الوجُودِ
هدايةُ الإمام ومطلعُ السعُودِ

* * *

عصابةُ الصِّدِّيقِ ورايَةُ الفاروقِ
والحقُّ والوسِيلَة والسمحة الظَّليلة
ومعقَلُ الفضيلةِ وغايةُ الأسودِ

* * *

الفُرْسُ فى لوائِه والهندُ فى ضيائِه
فى الأرض صارَ كالعَلَم بِعِزَّةٍ تمحو الظُّلَم
بين الكتابِ والقلم مظفَّر الجنود

* * *

الشامُ من أسرتِه ومصر نور غُرَّتِه
من هالة لهالة يمزِّقُ الجهالَة
ويهزِمُ الضَّلالَة ويَحْطِمُ القُيُود

* * *

علاقَةُ القلوب وعُرْوَةُ الشعُوبِ
مشى هُدًى ورحمة بينهم وذِمَّة
فليسَ بين أُمَّة وأُخْتِها حُدود

٧ - شعر للكبار
وليس للأطفال

* وبعض قصائد شوقى فى الحيوان لا يتصور قط أنه كتبها للأطفال، ولا يمكن أن يكون قد اجتمع بأحداث المصريين - على حد قوله - وقرأها عليهم.. مثال ذلك حكاية «القرد والفيل»، وفيها يلتقى قرد نصف أعمى مع الفيل، ويروح القرد يمتدحه شعرًا، ويسعد الفيل بالمديح، ويركب ذلك القرد الشاعر على ظهر الفيل:

فجالَ فى الظهر بلا توان حتى إذا لم يبق من مكان..
أوفى على الشىء الذى لا يُذْكَرُ وأدخل الأصبع فيه يخبر..

فاتَّهم الفيلُ البعوضَ واضطرب ... وضيق الثقبَ وصال بالذَّنَب
فوقع الضربُ على السليمَة ... فلحقت بأختِها الكريمَة!
... إلخ

* وهناك قصائد لها فلسفتها، التى قد تصلح للكبار وتمتعهم، غير أنها لا تتفق مع المفاهيم والقيم التى نسعى لغرسها فى نفوس الأطفال، وخير مثال لذلك مقطوعة جميلة بحق، يتحدث فيها شوقى عن «ساعته»..

لى ساعةٌ منْ معدنِ ... لا يقتَنِيهَا مُقْتَنِ
تعجل دقًّا وتَنِى ... مثل فؤادِ المدمنِ
وعقرباها والزما ... ن فى اختلاف بَيِّنِ
إذا مَشَتْ لم أحْتَفِل ... أو وقفَتْ لم أحْزَنِ
أو أخَّرتْ لم يُجْدِنى ... أو قدَّمَتْ لم أغْبَنِ
أحمِلُهَا لأنَّهَا ... تَغُشُّنِى فى الزَّمَن

* وحكاية «الفأرة والقط» قد لا يتقبلها الكثيرون كأدب للأطفال، وفيها يأتى الناعى إلى الفأرة بموت فتاها، فتبدى الحزن وتولول، وتعلن أنها تتمنى قطًّا يريحها من عذاب حياتها، وهنا يبرز القط..

ففزعَتْ لما رأتْهُ الفارَة ... واعتصَمت منْه ببيْتِ الجَارة
وأشرفت تقولُ للسَّفِيه ... إن مت بعْدَ ابنى فَمَنْ يَبْكِيه؟

* وهناك قصائد لها طابعها السياسى الواضح، واضطر شوقى إلى أن يتخفى وراء قصص الحيوان - شأنه فى ذلك شأن ابن المقفع - لكى يعلن عن آرائه وأفكاره فى فترة استبد فيها الاستعمار بأمور البلاد، وكبل

حرية التعبير بقيود ثقيلة، وكان للقصر وأسرة محمد على - رغم صلة شوقى بالخديوى - ما هو معروف من مؤامرات تستهدف المحافظة على العرش، واستغلال الشعب.. وقد طرق شوقى موضوعات تتصل بالحياة القائمة فى عصره: اجتماعية وسياسية، وكانت رموزه واضحة جلية، لا تحتاج إلى كثير من الذكاء لكى يدركها القارئ العادى.. فى حكايته (الديك الهندى والدجاج البلدى) قصد شوقى أن ينبه المواطنين إلى تسلل الاستعمار إلى بلادهم وسيطرته على كل مقدراتهم.. لقد رمز إلى الأجنبى بالديك الهندى، الذى دخل إلى بيت الدجاج البلدى، واستخدم أساليبه المعروفة، جاء ضيفًا، ليبقى، وليتحكم.. وتكرر منه نفس الرمز فى (الأفعى النيلية والعقربة الهندية).. إن الأفعى بنت النيل..

تحتقر النُّصحَ وتجفُو الناصِحَا وتدَّعى العقلَ الكبيرَ الراجِحَا

وقد طاردت عقربة هندية، فاختفت هذه فى جحرها، واغترت الأفعى بذلك، ونامت، فخرجت إليها العقربة الخبيثة لتلدغها فى دماغها..

من مَلَكَ الخِصْم ونـامَ عنْـه يُصبِـح يَلْقَى مَـا لِقيتُ مِنْـه

وتبدو الأمور السياسية أكثر وضوحًا فى قصيدة «أمة الأرانب والفيل».. والتشبيهات هنا لا تحتاج إلى تفسير، فهى جلية، من السهل إدراكها.. إنه يتحدث عن «أمة» وإن كانت من الأرانب الضعيفة، التى تشتهر بالخوف والوجل، خاصة أمام «الفيل» الذى راح يعتدى على وطن هذه الأرانب، معتمدًا على قوته وضخامته، فقام من بين الأرانب من ينادى بالاتحاد لمواجهة شرور الفيل.. وتفرقت الآراء وتبعثرت، لكن عندما توحدت الكلمة استطاعت الأرانب أن تهزم الفيل، وأقبلت على

صاحب الخطة التى نجحت فى الإيقاع بعدوهم، لتحييه وتحتفل به، وإذا به يرجع الفضل إلى صاحب النداء لأول بالاتحاد والتعاون..

يقول شوقى هذه القصيدة...

أُمَّةُ الأرَانِبِ وَالْفِيل

يَحْكُونَ أَنَّ أُمَّةَ الأَرَانِبِ ... قد أَخَذَتْ مِنَ الثَّرَى بجَانِبِ
وابْتَهَجَتْ بالوَطَنِ الكريمِ ... ومَوْئِلِ العِيالِ والحريمِ
فاخْتارَهُ الفيلُ لهُ طَريقا ... مُمَزِّقًا أصحابَنا تمْزِيقًا
وكان فيهِمْ أَرْنَبٌ لبيبُ ... أَذْهَبَ جُلَّ صُوفِهِ التَّجْريبُ
نادى بهِمْ يامَعْشَرَ الأرانِبِ ... مِنْ عالمٍ وشاعرٍ وكاتِبِ
اتَّحِدُوا ضِدَّ العَدُوِّ الجافى ... فالاتِّحَادُ قُوَّةُ الضِّعَافِ
فأقْبَلوا مُسْتَصْوِبينَ رأيَهْ ... وعقَدُوا للِاجْتِماعِ رَايَهْ
وانتخَبُوا من بينِهِمْ ثلاثَهْ ... لا هَرِمًا راعَوا ولا حَداثَهْ
بل نظرُوا إلى كَمالِ العَقْلِ ... واعتبَرُوا فى ذاكَ سِنَّ الفَضْلِ
فنَهَضَ الأوَّلُ لِلْخِطاب ... فقال إنَّ الرأىَ ذا الصَّوابِ...
...أن تُترَكَ الأرضُ لذِى الخُرطوم ... كَىْ نستريحَ من أذى الغَشُومِ
فصاحَتِ الأرانِبُ الغَوَالى: ... هذا أَضَر من أبى الأهوالِ
ووثَبَ الثَّانى فقالَ إنى ... أَعْهَدُ فى الثعْلبِ شيْخَ الفنِّ
فلْنَدْعُهُ يُمِدْنا بحِكْمَتِه ... ويأخُذ اثْنَيْن جَزَاءَ خِدْمتِهْ
فقيلَ لا يا صاحِبَ السُّمُوِّ ... لا يُدْفَعُ العَدُوُّ بالعَدُوِّ

وانتُدِبَ الثالثُ للكَلَامِ ... فقالَ يا مَعْشَرَ الأَقْوَامِ،
اجْتَمِعُوا فالاِجْتِماعُ قُوَّهْ ... ثُمَّ احْفِرُوا على الطريقِ هُوَّهْ
يَهْوِى إليها الفيلُ فى مرورِهْ ... فَنَسْتَرِيحُ الدَّهْرَ من شُرورِهْ
ثُمَّ يقولُ الجِيلُ بعدَ الجِيلِ ... قد أكلَ الأرنبُ عقلَ الفيل!
فاسْتَصْوَبوا مَقالَه واستحْسَنُوا ... وعَمِلوا مِنْ فورِهِمْ فأَحْسَنُوا
وهَلَكَ الفيلُ الرفيعُ الشَّانِ ... فأَمْسَتِ الأُمَّةُ فى أَمَانِ
وأَقْبَلتْ لِصاحِبِ التَّدْبيرِ ... ساعيَةَ بالتَّاجِ والسَّريرِ
فقالَ مَهْلًا يا بَنِى الأَوطانِ ... إنَّ محلِّى لَلْمَحَلُّ الثانى
فصاحِبُ الصَّوْتِ القَوِىِّ الغالبِ ... مَنْ قدْ دعا: «يامَعْشَرَ الأَرَانِبِ»

٨ - شوقى
يتعرض للبلاط

قلنا إن شوقى كان على صلة طيبة بالخديوى توفيق، الذى أوفده فى بعثة إلى فرنسا، وبعد عودته منها عمل مترجمًا بالقصر الخديوى، واستمر فى هذا العمل فى عهد الخديوى عباس الثانى.. ومما لا شك فيه أن حياة شوقى فى القصر قد أطلعته على كثير مما يدور فيه من مؤامرات، وفتحت عينيه على أمور ومواقف عرض لها فى قصائده، واستلهمها فى أشعاره عن الحيوان.. إن قصيدته «الليث والذئب فى السفينة» ترسم صورة بديعة للملك، الذى هو الليث فى القصيدة، وفى سفينة نوح، وقد تقرب إليه الذئب، وأصبح صديقه الصدوق، فوعده الليث بأن يجعله واليًا حين ترسو بهم السفينة إلى بر الأمان.. وعندما وصلوا الأرض، ذهب الذئب إلى

الليث يسأله أن ينجز وعده.. فماذ قال الملك؟!

قال: تجرَّأت وساء زعْمُكا ... فمنْ تكُون يافتَى وما اسْمُكا؟
أجابَهُ: إنْ كان ظنِّى صادقًا ... فإننى والى الولاةِ سَابقًا!

وفى قصيدة «الأسد ووزيره الحمار» يرسم شوقى صورة أخرى للبلاط، ولسوء اختيار الملوك لمعاونيهم، فقد رأى الأسد أن يجعل الحمار وزيره، وإذا بالمملكة تنهار، ويتساءل الأسد عن السر..

فجاءه القردُ سِرًّا ... وقال بعدَ اعْتِذَارِ
يا عالىَ الجاهِ فينا ... كنْ عَالِى الأنْظَارِ
رأى الرعيَّةِ فيكم ... مِنْ رأيكُم فى الحِمَارِ!

وهناك حكاية لم ترد فى الجزء الرابع من الشوقيات، لا فى باب (الحكايات) ولا فى (ديوان الأطفال)، وجاءت هذه الحكاية فى الشوقيات المجهولة تحت عنوان (دولة السوء). وفيها تتجلى ليلةُ القدر لكلب وقرد وحمار تتجول مع صاحب جوق، فطلب القرد أن تكون المملكة له وحده بغير شريك، ودعا الحمار أن يكون هو الوزير والصدر فى الدولة والمشير، وسأل الكلب ربه أن يجعله قاضيًا..

فراع رب الجوق ما قد سمِعا ... ثم جثَا لِربه وضرعَا
وقال يا صاحبَ هذى الليلة ... سألتك الموْتَ ولا ذى الدَّوْلة

وفى قصيدة «النعجة وأولادها» التى جعل مسرحها أرض بغداد وقال فيها إن الراعى نام وكذلك نعاجه، فيما عدا واحدة، هى نعجة أم ترعى طفلها الرضيع المريض، وعندما جاء الذئب أيقظت النعجة صاحبها الذى

طارد الذئب وطرده، فازدهت الأم بما فعلت، وقالت:

إذا الرُّعاةُ على أغنامِها سهرت ... سهرت من حب أطفالى على الراعى

وقد يدهش البعض لهذا الكم الكبير من الحكايات التى تدور حول الملوك والسلاطين، وتجرى أحداثها فى القصور، وربما أراد شاعرنا الذى امتدح الخديوى علانية أن يوازن الأمر بقصائده التى تنتقد فى عنف البلاط ورجاله، والدسائس والمؤامرات التى تكثر فيه..

يحكى شوقى فى قصيدة (الأسد والضفدع) أن السلطان جلس على عرشه، وجيء بالضفدع الذى أزعجه فى نومه بالنقيق، وأوعز المحيطون بالأسد إلى مولاهم أن يقتل الضفدع..

فنهضَ الفيلُ وزيرُ العُلا ... وقال: يا ذَا الشَّرفِ الأَرْفَعِ

لا خيرَ فى المُلْكِ وفى عِزِّهِ ... إنْ ضاقَ جَاهُ الليثِ بالضِّفْدَعِ

فَكَتَبَ الليثُ أمانًا لها ... وزاد أن جادَ بِمُسْتَنْقَعِ

وفى قصيدة «ولى عهد الأسد وخطبة الحمار» يروى الشاعر الكبير حكاية مولد ولى العهد، ووفود الحيوانات للتهنئة، وألقت الحيوانات كلماتها بهذه المناسبة، ووقف الحمار ينهق بصوته المنكر، وارتعد ولى العهد، ومات.. فانتقمت الحيوانات منه وحملت عليه بأنيابها وأظافرها..

وانتدَبَ الثعلبُ للتَّأْبِينِ ... فقال فى التَّعريضِ بالمِسْكِينِ:

لا جعلَ اللهُ له قَرارا ... عاشَ حمارًا ومَضَى حمارا!

وعندما نخر السوس فى قصر ملك الغربان - وكان ذلك القصر فوق نخلة -، جاءه ندور الخادم لينبهه إلى خطورة الأمر، إلا أن ملك الغربان

قال: «أنا لا أنظر فى هذه الأمور» وبعد عام كان السوس قد أكل جذور النخلة التى قام فوقها القصر، وهبت الريح فاقتلعت النخلة ودمرت القصر، ففزع السلطان ملك الغربان للأمر واستدعى خادمه يقول:

يا نُدورَ الخَيْرِ أَسْعِفْ بالصِّياحْ ... ماتَرى ما فَعَلَتْ فينَا الرِّياحْ؟
قال: يا مولاىَ لا تَسْأَلْ نُدُور ... «أنَا لا أَنْظُرُ فِى هٰذِى الأُمُورْ»

وتأتى قصة، وقصيدة «نديم الباذنجن» ذروة فى موضوع حديثنا عن شعر شوقى فى الحيوان، فقد عرى فيها حاشية السلطان بصورة بالغة الظرف يقول:

كان لِسُلطانٍ نديمٌ وافِ ... يُعِيدُ ما قالَ بلا اخْتِلافِ
وقد يَزيدُ فى الثَّنا عليه ... إذَا رأى شيئًا خلَا لَدَيْهِ!
وكانَ مولاهُ يرَى ويَعْلَمُ ... ويَسْمَعُ التَّمْلِيقَ لكن يكْتُمُ
فجلسا يومًا على الخِوَانِ ... وجىء فى الأكل بِبَاذِنْجانِ
فأكل السُّلطانُ منه ما أَكَلْ ... وقالَ: هذا فى المَذاقِ كالْعَسَلْ!
قال النديم: صدَقَ السُّلطانُ ... لا يَسْتَوِى شَهْدٌ وبَاذِنْجَانُ
هذا الذى غَنَّى به «الرئيسُ» ... وقال فيه الشعرَ «جالينوسُ»
يُذْهِبُ أَلفَ عِلَّة وعِلَّة ... ويُبْرِدُ الصَّدْرَ ويَشْفِى الغُلَّة!
قال: ولكن عنده مراره ... وما حَمِدْتُ مرةً آثارَه!
قال: نَعَمْ مرٌّ وهذَا عيْبُهُ ... مذ كنت يامولاىَ لا أُحِبُّه!
هذا الذى مات به «بُقْراطُ» ... وسُمَّ فى الكأس به «سُقْراطُ»
فالتفتَ السُّلطانُ فِيمَنْ حَوْلَهُ ... وقال: كيف تَجدُونَ قَوْلَه؟

قـالَ النديمُ: يـامليكَ النَّـاسِ عذرًا فما فى فَعْلَتِى مِنْ بـاسِ .
جُعِلْتُ كى أُنـادِمَ السُّـلطانَـا ولم أنـادم قَطُّ بـاذِنْجَـانَـا!

الفكاهة عند شوقى

وكان شوقى شاعرًا مرحًا، يستطيع أن يصوغ مقطوعات تلف العبرة بالفكاهة، ويختفى فيها الجد وراء الهزل، ومن بينها ما داعب به صديقه محجوب ثابت، مثل قول شوقى فى سيارته..

لـه فـى الحىِّ سيَّـارهْ حـديث الجـار والجـارهْ
إذا حـرَّكَـهـا مـالـتْ عـلى الجنبيْن منهَـاره
وقـد تـحـرن أحيـانًـا وتـمشـى وحـدَهـا تَـاره
ولا تـشـبـعـهـا عـيـن مـن الـبـنـزيـن فـوَّاره
تـرى الشـارع فى ذعـر إذا لاحَتْ مـن الـحَـاره

وقـد استطاع شـوقى أن يضفى على حكـاياتـه عن الحيوان روح الفكاهة، ويرى الأستاذ العقاد أن «هذه الفكاهات وأشباهها هى الباب الوحيد الذى ظهر فيه شوقى بملامحه الشخصية، لأنه أرسل نفسه فيه على سجيتها، وانطلق من حكم المظهر والصنعة والقوالب العرفية التى تنطوى فيها ملامح الشخصية وراء المراسم والتقاليد، وهنا يبرز من جميع دواوينه وروايـاته ما جبل عليه من حب الحيلة والعمل الخفى، والاستراحة إلى مقالب النكاية التى تنطوى على الدعابة».

وشوقى يعرف بالطبع مدى إقبال الأطفال على الفكاهة، وحبهم لها، واستمتاعهم بها، لذلك ضمن قصائده الكثير منها.. ولعل خير مثال لذلك قصيدته:

الحمار فى السفينة

سقط الحمار من السفينةِ فى الدُّجى ... فبكى الرفَاق لفقْدِه وترحَّمُوا
حتى إذا طلع النهـار أتت بهِ ... نحـو السفينـة مـوجـةٌ تتقـدمُ
قالت خذُوه كمـا أتانِىَ سـالِمًا ... لـم أبتـلعـه لأنـه لا يُهْـضَمُ!

وبعد....

مما لا شك فيه أن شوقى رائد لأدب الأطفال العربى: فقد اختـار القصص، واتجه إلى قصص الحيوان، ونظمها شعرًا، وكان مرحًا فكهًا، مما يجعل هذه الأعمال كلاسيكيات خالدة، يمكن أن يقرأها الأطفال جيلاً بعد جيل.. وإذا كانت يد الإهمال قد تناولتها، إلا أن الاهتمـام بها - بمناسبة مهرجان شوقى وحافظ بمناسبة مرور نصف قرن على رحيلهما - يمكن أن يكون بداية على الطريق، ومدخلاً طيبًا لإعادة أطفالنا إلى ساحة الشعر، ليستمعوا به وليصقلوا وجدانهم، تمهيدًا لأن يتعرفوا على شوقى أميرًا للشعراء، وحافظ إبراهيم، والبارودى، ولكى يطالعوا ديوان الشعر العربى من امرئ القيس إلى صلاح عبد الصبور.. وما من سبيل إلى ذلك إلا بتدريبهم على سماع الشعر ومطالعته فى طفولتهم.

المراجع

١ – الشوقيات ودواوين أحمد شوقى، والشوقيات المجهولة للدكتور محمد صبرى السربونى و«منتخبات من شعر شوقى فى الحيوان».

٢ – شوقى شاعر العصر الحديث. د. شوقى ضيف.

٣ – شوقى وحافظ طاهر الطناحى.

٤ – خرافات لافونتين فى الأدب العربى د. نفوسة زكريا.

٥ – فى أدب الأطفال د. على الراعى.

٦ – الشوقيات الصغيرة (مقال للأستاذ كمال النجمى – هلال نوفمبر ١٩٦٨).

٧ – الطفل ودراسة الأدب (بتزنر – ترجمة ماهر كامل).

٨ – دليل الآباء إلى قراءات الأطفال (نانسى لاريك. لم يترجم).

٩ – بحوث المكتب الدولى لكتب الأطفال فى المؤتمر الخامس عشر فى أثينا (عام ٦٧) عن شعر الأطفال وحكاياتهم الخيالية.

١٠ – القصص الحيوانى حامد عبد القادر.

١١ – يحكى أن .. أو (كليلة ودمنة بالصور) محمد عبد الرحيم ترة.

١٢ – أعمال لافونتين (طبعة هاملين/ترجمة جون أورين).

كامل كيلانى.. ومكتبة الأطفال... وماذا يتحتم على أطفالنا قراءته؟!

دعوت المجلس الأعلى للفنون والآداب لعقد حلقة دراسية حول كامل كيلانى فى العام الدولى للطفل، وقد تقدمت رسميًّا بهذا الاقتراح إلى لجنة ثقافة الطفل، على أن تعقد الحلقة ما بين العاشر والعشرين من أكتوبر ١٩٧٩ بمناسبة مرور عشرين عاما على رحيله، ولتكون الحفاوة به ما بين تاريخ مولده ووفاته.. وأدرج الاقتراح فى محاضر اللجنة، وتحمس له البعض، ثم خبت الحماسة وانطفأت. وتساءلت يومئذ، وإلى الآن، عن السر.. أهناك موقف من الرجل وأدبه؟

إن البعض يرى أن «كامل كيلانى» لم ينصف - وأنا من هؤلاء - فهو لم ينل حقه كرائد، فما حصل على جائزة من الدولة،

والجائزة التى حملت اسمه منحت مرة ثم اختفت، وعلى كثرة ما يكرم الراحلون فى أيامنا هذه لا يرد اسمه بينهم: لا وسام، ولا نوط، ولا شهادة فخرية.. لا شىء يبقيه حيًّا غير كتبه التى تتوالى ظبعاتها، وما زالت تلقى إقبالاً واسعًا واحترامًا كبيرًا، فى وقت غمرت فيه البوليسيات الرديئة سوق كتب أكبادنا..

وهناك آخرون - لست بينهم - يرون أن الرجل أخذ الكثير، بل وفوق ما يستحقه، خاصة فى مجال الإعلان عن كتبه التى يرونها مترجمة، مقتبسة، منقولة عن لغات أخرى، بأسلوب يصعب على الأطفال قراءته، وبلغة تخرج مفرداتها عن قاموس الطفل، وبتركيبات وعبارات معقدة، فضلاً عن عدم مراعاته مستويات الأعمار فى أعماله.. ويرى هؤلاء أن علاقة الكيلانى بأدباء عصره، وعمله معهم فى مجال أدب الكبار، مع تفرده فى مجال الأطفال قد جعل هؤلاء الكتاب يفوقون عليه المديح، حتى لقد صدر كتاب عن أدبه للأطفال بعد سبع سنوات فحسب من بداية نشره لهذا الأدب!، الأمر الذى يؤكد قدرته غير العادية على الدعاية لفنه وأدبه.. والسؤال الذى يطرح نفسه:

- أين الحقيقة بين هذين الرأيين؟!

ماذا تعنى «الريادة»؟

نحن بحاجة إلى تقييم موضوعى لما قام به كامل كيلانى، لكى نصل إلى الحقيقة الكاملة...

إن كامل كيلانى رائد لأدب الأطفال العرب بدون شك، والريادة لا تعنى أن يكون صاحبها هو الأول فحسب، بل لابد معها من الإصرار

على الاستمرار.. وما أظن أحدًا وفق هذا المفهوم، يستطيع أن ينكر على الرجل ريادته، مع أن البعض قد سبقوه على الطريق مثل إبراهيم العرب، فى كتب المطالعة، وأحمد شوقى، وعثمان جلال، والهراوى فى مجال الشعر، الذى لم يفته..

والواقع أن كامل كيلانى ارتاد هذا الطريق، ممثلا لمرحلة هى أولى مراحل بناء كيان لأدب الأطفال، وإنشاء مكتبة متكاملة لهم، تلك هى مرحلة الترجمة، والنقل، والاقتباس، فى ميدان كان يخلو من المهتمين به، العاكفين عليه، بل كان من يقتحمه يلقى الكثير من السخرية والاستهجان.. ولم يحدث هذا فى بلادنا فحسب، بل إن (شارل بيرو) الفرنسى، حين سبق وكتب قصصه الشعبى للأطفال - كرائد - لم يضع اسمه عليها، بل وضع اسم ابنه، وأشاع أن مربية الابن هى التى روت هذه القصص التى يتراوح عددها ما بين سبع قصص، وإحدى عشرة قصة.. ولا شك أنه بعمله هذا كان رائدًا إذ يؤرخ لبدايات كتب الأطفال بهذه القصص، كما أن أحدًا لا يناقش قضية أن هانزاندرسون هو أول من أمسك بقلمه ليكتب قصصًا مؤلفًا، خصيصا للأطفال..

مكتبة «كامل كيلانى»

وعلينا هنا أن نتساءل:

- ماذا كتب كامل كيلانى للأطفال؟

إن نظرة فاحصة لببلوجرافيا كتب كامل كيلانى - التى أعدها حسن عبد الشافى - سوف تكشف لنا ذلك الجهد الرائع، الذى بذله الرجل فى

مجال أدب الأطفال.. ومن سلاسل كتبه نستطيع أن ندرك ماذا ترجم، وماذا نقل، وماذا اقتبس، وماذا كتب للأطفال؟..

لا شك أنه ترجم قصص شاكسبير الأربع، وأساطير العالم الست، بجانب أسطورتين من أفريقيا كما ترجم سبع قصص هندية، وترجم «أشهر القصص» فى خمس كتب.. ونجد المترجمات كذلك فى أساطير الحيوان، وحكايات الأطفال، وعجائب القصص، وقصص الجيب، وقصص رياض الأطفال..

ونجد أن كامل كيلانى قد نقل عن العربية - بصياغته الخاصة - حكايات جحا الخمس، وقالت شهرزاد - فى ١٩ كتاب - و١١ قصة لجحا، وعشر قصص عن ألف ليلة، وكتابين فى «قصص عربية»، و٨ كتب فى سلسلة قصص فكاهية..

وأسوة بما فعله كبار كتاب جيله من كتابة السيرة النبوية الشريفة، أقدم كامل كيلانى على كتابتها فى سلسلة كتب، وجعلها على هيئة حوار بين أصدقاء ثلاثة.. (كتب هيكل (حياة محمد) والعقاد (عبقرية محمد)، وطه حسين (على هامش السيرة)، وتوفيق الحكيم (محمد)... إلخ).

لقد بلغت كتب كامل كيلانى - التى نشرت - مائة وستة وتسعين كتابًا.. هل يمكننا أن نغفل كل هذا العمل، وهل فى استطاعتنا بجرة قلم أن ننسى هذا التراث الرائع أو نتناساه؟! إن أى محاولة للإساءة إليه سوف ترتد إلى نحر صاحبها، لأن ما بناه الرجل لن تنال منه معاول الهدم مهما فعلت، وأجدر بنا أن نكون أكثر حرصًا على ما خلفه لنا، لأنه جزء منا ومن تاريخنا، حتى لو اختلفنا فى تقييمه، والخلاف يرجع غالبًا إلى

اتخاذنا معايير مختلفة لا أكثر ولا أقل، والرجل - بكل المقاييس - صنع الكثير من أجل أدب الأطفال وكتبهم.

دفاع عن كامل كيلانى

إن البعض يحاول تقييم أعمال كامل كيلانى للأطفال وفق مقاييس أواخر القرن العشرين، فى الوقت الذى قدم فيه الرجل كتاباته فى عشرينيات هذا القرن.. وفى هذا ظلم كبير لهذا الإنتاج.. لغويًا، كان التمسك بلغتنا العربية الفصحى كبيرًا، ولم تكن أجهزة الإعلام قد بذلت جهودها من أجل الإجهاز عليها، (ولنتذكر الفلة فى القلة والأكس فى التاكس، وتلاعبًا صارخًا بالكلمات)، وكانت الفصحى لها جلالها واحترامها، وأساتذة اللغة العربية يتكلمون، بل يترنمون بها بين أطفال المدارس، ولم تكن الصحافة قد ابتدعت قاموسها المبسط، الذى يسر للقراء الفهم، وحرمهم من ذلك القاموس العربى الثرى من الكلمات.. كما أن فكرة قاموس كلمات الطفل المقروءة قد عرف لدينا، إلا فى اللغة الإنجليزية على يد (ميشيل وست)، صاحب القاموس الشهير، وصاحب الكتب المبسطة التى كانت تدرس فى معاهد التعليم فى بلادنا.. بينما كانت كتابات مؤلفى كتب الأطفال تغمر الأسواق فى إنجلترا وأمريكا، وتحتشد بها صفحات كتب المطالعة كما أن أمريكا كانت قد أبدت اهتمامها الكبير بأدب الأطفال، فأنشأت جائزة نيوبرى عام ١٩٢٢، كما أنشأت إنجلترا جائزة كارينجى عام ١٩٣٦.. وكان ذلك كله على أثر انتشار أعمال هانز كريستيان أندرسون، وغيره من الكتاب العالميين البارزين فى هذا المجال، ومن بينهم عدد كبير حاز جائزة نوبل - ولم يكن ذلك عن كتاباتهم

للأطفال – مثل كبلنج، وسالمى لاجرلوف، وطاغور، ورومان رولانـد، وبيرل باك، وجبريلا مسترال، ومورياك، خمنيز، وغيرهم ممن أعطوا مجال الأطفال اهتمامًا خاصًا فى كتاباتهم.

كما أن البعض يتساءل عما أبدعه كامل كيلانى وألفه للأطفال، والحق أن مطالبته بذلك أمر غير مستساغ، فقد عاش أطفال العالم عالة على مائدة أدب الكبار حينًا، وعلى مائدة الأدب الشعبى حينا آخر، ولم يتنبه أحد إلى أن للأطفال عالمهم الخاص، وأنه يتحتم أن يكون لهم أدب خاص إلا منذ قرنين من الزمان، وليس معقولاً أن نبدأ فى التأليف للأطفال قبل أن ننقل ما لدى المتقدمين من أعمال فى هذا المجال، وقد ترجمت روايات، وقصص قصيرة، كثيرة وعديدة قبل أن يشرع هيكل فى كتابه (زينب)، وقبل أن يبدأ تيمور قصصه، وحدث نفس الشىء فى مجال المسرح.. وكان لابد وأن نمر بمرحلة الترجمة والنقل والاقتباس قبل أن نشرع فى مرحلة الإبداع والخلق والتأليف، كان ذلك ضروريًا فى مجالات الرواية والقصة والمسرح، وفى مجال أدب الأطفال كذلك.. وأزعم أن كامل كيلانى باتجاهه إلى ارتياد التراث العربى، قد خطا إلى أبعد مما تقتضى المرحلة التى يمثلها، بل إن الرجل له محاولات طيبة على طريق التأليف، يحمد عليها ويشكر، حتى لو كان قد استعان ببعض ما فى التراث، واستوحاه بعض جوانب أعماله الإبداعية..

ماذا «يتحتم» أن يقرأ الأطفال ؟

ومن الواضح أن كتابًا واحدًا – من الكتب التى أبدعت خصيصًا

للأطفال – لم يصل إلى يد كامل كيلانى.. وكل ما وصل إليه كتب الكبار، التى أعجبت الأطفال، وتم تبسيطها، لتكون فى متناول أفهامهم وقدراتهم، أى أن كامل كيلانى قد وقف تاريخيًا عند المرحلة السابقة على هانزاندرسون.. وهذا لا يعيب كامل كيلانى، فإن نظرة إلى قوائم الكلاسيكيات العالمية الخالدة التى أعدت للأطفال تجعلنا – هذه النظرة – نؤمن بأن الرجل قد أحسن الاختيار فيما ترجم ونقل.. هذه القوائم لا تخلو من تبسيط قصص شاكسبير ومعها جاليفر، وربنسون كروزو، وألف ليلة وليلة.. ورغم مرور عشرين عامًا على رحيل رائدنا إلا أن الكثيرين من الجيل التالى له، ما زالوا يدورون فى نفس الفلك، ولم يتعدوه.. وقفوا عند هانز اندرسون!، الذى مضى عنا منذ قرن من الزمان!..

على أن كامل كيلانى – الذى لفتت كتب الأطفال الأجنبية أنظاره إليها – لم يفته أننا بحاجة إلى أن نرتوى من نبع عروبتنا، وأنه من الضرورى أن نرجع إلى تراثنا فى هذا المجال، وقد هدته فطرته وأصالته إلى ذلك، وأدرك الرجل أن الشجرة إذا لم تكن عميقة الجذور أصبح من السهل اقتلاعها لهذا أعطى اهتمامًا كبيرًا لما خلفه لنا العرب من تراث يصلح للأطفال، وقد أقدم على تبسيط «حى بن يقظان» وصياغتها من جديد، وفعل نفس الشىء مع رحلات ابن جبير.. كما أن حكايات جحا، والقصص الفكاهية لها جذور وأصول فى كتبنا القديمة.. كل هذا بجانب محاولاته للتأليف..

إن كامل كيلانى رائد بكل المقاييس، إذ هو جزء لا يتجزأ من تراث

مصر وأمتنا العربية، ويجب أن نحتضنه بحب ووفاء، ويجدر بنا ونحن نقف على أكتافه ألا نزيحه وإلا سقطنا، ونحن مطالبون بأن نمضى على طريقه، ويكفى أن الرجل حاول أن يكوّن مكتبة متكاملة، وحاول أن يجيب على ذلك السؤال التقليدى...

– ما هى الكتب التى «يجب» بل و«يتحتم» على الأطفال قراءتها؟!

إن مكتبة كامل كيلانى كانت كافية بالنسبة لجيلى، وقد قرأتها بشغف وحب.. غير أنه قد بات من الضرورى محاولة وضع إجابة عامة وشاملة للرد على ذلك السؤال الذى حاول كامل كيلانى، أن يجيب عليه إجابة عملية بمكتبته الزاخرة، كما أصبح من اللازم إعداد قائمة بالأعمال الكلاسيكية التى لابد وأن يطالعها كل طفل، قبل أن يعبر مرحلة الطفولة، لكى تكون هذه الأعمال جزءًا لا يتجزأ من تكوينه الفكرى وبنيته الثقافية ومن أجل أن يواكب طفلنا عالمه وعصره..

وقبل أن أقدم هذه المحاولة، أريد أن أضمِّن مقالتى هذه ما سبق لى أن نشرته عن كامل كيلانى فى أكتوبر عام ١٩٧٩، فى مجلة (صندوق الدنيا) احتفالاً بذكراه فى العام الدولى للطفل.. وكان فى خطتى أن أقدم عنه عملاً روحيًّا أضفر فيه حياته بقصصه، لكن ظروفًا خارجة على إرادتى حالت بينى وبين ذلك... ولكننى قمت بها إذاعيا عام ٨٩ وعام ١٩٩٠، وكتبت ثلاثين حلقة إذاعية قدمت خلالها بنجاح كبير..

بداية الطريق

حيُّ القلعة الحيُّ الشعبيّ العريق.. وقلعةُ صلاح الدين تطلُّ شامخةً عليه من فوق، تُذكره بالماضى وأمجادِه، وبالبطل صلاح الدين. بيتٌ عريقٌ من بيوت الحى.. الأسرةُ لا هى غنيةٌ ولا هى فقيرةٌ.. الأبُ صاحبُ مهنةٍ فَذَّةٍ: مهندسٌ فى وقتٍ عَزَّتْ فيه هذه المهنة.. ويفرحُ هذا الأبُ - كلَّ عامٍ - لمدة ١٤ عامًا بمولدِ طفل.. ويحزنُ لفقدِه، ولم يبقَ له إلا ذلك الذى وُلِدَ يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٨٩٧.. وسمَّاه «كامل»!

ودخل كامل الكيلانى الكُتاب.. وبدأ يحفظُ القرآنَ الكريم، ثم اتَّجه إلى مدرسة (أمِّ عباس) الابتدائية سنة ١٩٠٧، وهى مدرسةٌ ما زال بناؤها قائمًا لليوم.. وفى ذلك الحين، كان من حسنِ حَظِّ كامل أن يشرفَ خاله على تربيته، وكان الخالُ محرومًا من نعمة البَصر، غير أنه كان ذا بصيرةٍ مُضيئة، ويعرفُ مئاتِ الحكايات.. كما أن سائقَ (الحنْطور) الخاصِّ بهم كان يعرفُ بعض السِّيَرِ الشعبيةِ وراح يحكيها له.. بجانب سيدةٍ يونانية لا عائلَ لها، جاءتَ لتعيشَ معهم وتشرفَ على تربية كاملٍ الصغير، لكى تضيفَ إلى حصيلتهِ من القصص العربية أساطيرَ من اليونان وأوربَّا!

وتعرَّف كامل فى مدرسة (أم عباس) إلى صديقه سيد إبراهيم، الذى أصبح خطَّاطًا فنَّانًا، وحمل إليه يوما كتابًا من كتب الأطفال الجميلة

المطبوعة فى الخارج، ووصفه بجانب كتاب (المطالعة الرشيدة) الذى كان مقرَّرا عليهم فى ذلك الحين، وقال كامل..

- انظر الفارق..

قال سيد: إنه واضحٌ حَقًّا..

عقَّبَ كامل: إن كتبنا تجعلُنا لا نحبُّ القراءة !!

نظر إليه صديقُه سيد طويلا، قبل أن يقول عبارة ظَلَّتْ تُدَوِّى فى أُذُنِ كامل الكيلانى بقيةَ عمره، قال له:

- ألف، واكتبْ أحسنَ منها، إن كنت «شاطر»!

وبدأ كامل الكيلانى فى قبول التحدِّى، وبدأ يكتبُ وهو ما زال تلميذًا بالسنة الرابعة الابتدائية، وكان قد أُعجِبَ بشخصية (دُمرَ) وهو ابنُ سيف بن ذى يَزَن فألفَّ قصةً جعل فيها لدمرَ هذا ابنا سمَّاه صفوان، ووضع للقصة تخطيطًا لتكونَ فى ثلاثينَ جزءًا، وجعل عنوانها «الأميرُ صفوان، وقصته بالتمام والكمال، والحمد لله على كل حال»!!، وقرأ القصة على صديقه سيد، فأعجبتْه كثيرًا، وذهبا معًا - وكل منهما يرتدى بنطلونًا قصيرًا - إلى أحد «الكتبية» - وهم ناشرو الكتب فى ذلك الحين، وكانوا قلةً وجَهَلَةً، وبعضُهم أُمِّى، لا يعرفُ القراءةَ والكتابةَ! - ودفعا للرجل بالقصة، فنظر إليهما يسألهما عن المؤلف، وعندما قال كامل الكيلانى إنه المؤلف تطلع إليهما بنظرةٍ فظيعةٍ ظلَّ يذكرها كامل إلى آخر حياته.. وطردهما الرجل من مكتبته شرَّ طردة.. والطريف أن هذا الرجل حاول بعد سنوات طويلة أن يحصل على حقِّ نشر كتابٍ واحدٍ من كتب كامل الكيلانى، ورفض كامل.. ولم يذكر له سبب هذا الرفض. وقد أثر

هذا الحادثُ كثيرًا فى نفس كامل الكيلانى، فكان يَهابُ لقاءَ الناس، ولا يُكثر من التعرُّفِ إلى الغرباء؛ إذ كان يخافُهم ويرتبكُ معهم، وإن كان يحبهم..

وأنهى كامل دراستَه الابتدائية، وإن كان قد ظلَّ على صلةٍ وثيقةٍ بالحاج مصطفى بائع البسبوسة الذى يقفُ على باب الحارة، ويعقد عندها نَدَوَاتٍ أدبية.. وظَلَّ كذلك صديقًا لشاعر الربابة «عبده الشاعر» الذى كان معروفًا فى سوق العَصر فى ميدان القلعة.. وغيرهما من أبناء الشعب الذين تتلمذ على يديهم، وعرف منهم حكايات ألف ليلة، والمعَلَّقاتِ، والسِّير الشعبية: مَثل حمزة البهلوان، والظاهر بِيبَرْس.. تلك الكنوز التى قرأها بعد ذلك فى شَغَفٍ وحب، وأعاد كتابةَ أجزاءٍ منها بعد أن نفضَ عنها ترابَ النسيان وغبارَ القِدَم..

مضى كامل الكيلانى إلى المدرسة الثانوية، وانتسب للجامعة المصرية القديمة، وعمل مدرِّسًا، ثم نقل لوزارة الأوقاف التى بقى فيها طويلاً.. وكتب للكبار كتاباتٍ رائعة، لكنَّ ما كتبه للأطفالِ كان أروع.. وهو لا ينسى ذلك الحلمَ الذى رآه فى نومه فى فترةٍ مبكرةٍ من حياته.. رأى الببَّغاء «زمردة» تطرق زجاجَ نافذتِه، ثم تحمله إلى «وادى عَبْقَر» حيث التقى بملكتِه.. التى قالت له:

- سنتوِّجُكَ مَلِكا!...

وكررتْها ثلاثَ مراتٍ!

وضحك كامل الكيلانى.. إن هذا يحدثُ فى القصص والحكايات.. ولكنَّها أضافت:

– سيكون شعبُك فى كلِّ الوطنِ العربى.. وشعبُك كلُّه من الشبابِ الصغير..

وتَلْمِس الملكةُ أطرافَ أصابِعه..

ويصْحو ليُمسكَ بالقلم ويكتبَ ويكتب.. إلى أن ودع الحياةَ فى يوم ١٠ أكتوبر عام ١٩٥٩.

وكم حزن شعبُه.. ولكنهم تنبهوا إلى أنه باقٍ خالدٍ بينهم بمئاتِ الكتب التى ألَّفها!

معنى «كلاسيكية» للأطفال

الكتاب القيم حقيقة هو الذى ينقلنا - عندما نفتح صفحاته - إلى عالم جديد، ومثير، وممتع، ويجعلنا نتابع سطوره فى لهفة، ونعايشه بالكامل، ونتمثله.. ثم قد نعود إليه مرارًا وتكرارًا لأنه مس أمورًا فى نفوسنا، وأضاف كثيرًا إلى عقولنا.. وروعة أى كتاب تعتمد على أمرين: إلى أى حد استطاع أن ينقلنا إلى عالمه؟ وما صورة هذا العالم الذى ارتدناه معه وكم هو جميل وممتع؟.. والحق أن هناك الكثير من الكتب من هذا اللون، ولابد للإنسان من قراءتها قراءة واعية مستنيرة، وأن يعكف عليها دراسة واستيعابًا.. ولقد أفرزها العقل الإنسانى على مدى تاريخ تحضره، منذ «كتاب الموتى» الفرعونى، إلى آخر ثمرات المطبعة الحديثة.. وهذا القول ينطبق إلى حد كبير على دنيا الكتب فى عالم الأطفال، مضافًا إلى ذلك عامل الخيال الواسع، الرحيب، الفسيح، الذى يضفى على الفن روعته، ويجعله حقيقيًّا بل «وواقعيًّا»، ويجعله مقنعًا، ومؤثرًا بشكل تلقائى وعفوى.

ومنذ دخلت «أليس» جحر الأرنب وملايين الأطفال يقتفون أثرها، ويدخلون وراءها إلى ذلك العالم الرائع، والفذ.. والعالم كله يعترف بأن رواية (أليس فى بلاد العجائب) أروع عمل يمكن أن يتصف بالكلاسيكية. إنه يمتع كل الأطفال بدرجة تفوق الوصف، كما أنه يقرأ من جديد، مرة بعد الأخرى، دون أن يشعر القارئ بالملل، ولقد قرأته شخصيًّا أكثر من

عشر مرات، وفى كل مرة أجد فيه جديدًا، ويحدث كثيرًا أن أقتبس بعض عباراته، وأتمثل بفقرات منه، لما تحويه من فلسفة عميقة ومرح يفوق الوصف.. إننى ألتقى بكثير من أحداثه، وأتذكر العديد من شخصياته، فى الحياة اليومية، بل إننى أكتشف بين الحين والآخر تصرفات لى، وللآخرين، وردت فى ثنايا الرواية.. وإذا ما فات طفل ما أن يقرأ هذا الكتاب فى الوقت المناسب، فلا شك أنه سوف يمنى بخسارة حقيقية وكبيرة، إذ سوف يفقد إضافة خطيرة كان يمكن أن يمنحها لعقله وللكنوز التى يدخرها هذا العقل لمستقبل الأيام..

وهنا يثور سؤال: ما الذى يجعل من كتاب ما عملاً كلاسيكيًّا، لابد وأن يقرأ؟

عوالم جديدة مثيرة

تعالوا بنا نقف عند عدة كتب - ليست للأطفال، لكنهم أحبوها - يراها كل العالم من أهم الكتب التى يجدر بالطفل قراءتها.. إنها: روبنسون كروزو، رحلات جاليفر، وألف ليلة وليلة.. وقد قدمتها مكتبة الكيلانى للأطفال العرب.. كروزو فى كتاب واحد، وجاليفر فى أربعة كتب، وعشر قصص من ألف ليلة.. بداية، يجب أن نعترف أنها لا تعجب كل الأطفال، لكنها جميعها تتصف بذلك العالم المثير الذى ننتقل إليه عبر سطورها، ونعيش فيه بالكامل، ونأسف إذا اضطررنا إلى مغادرته بعض الوقت خلال القراءة، وكم نشعر بالأسف حين نرحل عنه، بعد أن ننتهى من القراءة، ونتمنى لو أنه امتد بنا أبدًا.. وهذا يؤكد ما أشرنا إليه من أن

الكتاب القيم هو الذى ينقلنا إلى عالم جديد، غريب، مثير، ممتع..

وليس هذا هو الشرط الوحيد كى يصبح عمل ما كلاسيكيًّا، بل هناك الكثير.. لابد وأن يعيش هذا العمل لأكثر من جيل، فقد يتقبل أطفال جيل ما واحدًا من الكتب بالحب والإقبال، لكن الكتاب لا يلقى نفس الاهتمام من الأجيال التالية، مثل هذا الكتاب لا يمكننا أن نضعه فى قائمة الكلاسيكيات.. ويثور جدل طويل ما بين الناشرين حول هذه الكتب التى تنفد وتعاد طباعتها بشكل جذاب وبأسعار مقبولة، فتلقى الإقبال وتثير لدى الأطفال الرغبة فى القراءة والمطالعة.. أيمكن أن تكون كلها «كلاسيكيات»؟

أعمال تمس القلب والعقل

إن كتبًا كثيرة يحبها الأطفال لروعة ما فيها من فن أدبى وروائى، وليس لمجرد شكلها ورسمها.. إنها أعمال تتسم بالبساطة الشديدة والإخلاص العظيم، وهى من العوامل التى تجعل من كتاب ما خالدًا، تتلقفه الأجيال فى لهفة وحب.. لكن هناك كتبًا تلقى شعبية مؤقتة، وإقبالاً موسميًّا، ثم ينحسر عنها الاهتمام، لأنها تكتفى بدغدغة الأطفال، ومداعبتهم، واستثارة ميولهم، والاستجابة لرغباتهم لا أكثر ولا أقل..

وتجاوب الأطفال مع الحكايات الخرافية والأساطير فى عصر الذرة والأقمار الصناعية، دليل قاطع على أن الأطفال لا يتغيرون - جذريا - مع العصور والأجيال، ولو لم يكن عالم هذه الحكايات رائعًا لما استطاع أن يجتذب إليه أغلب الأطفال فى مراحل معينة من نموهم العقلى والذهنى..

والوسيلة لمعرفة الكتب التى تصلح للأطفال من الأعمال الكلاسيكية كتب الأطفال الكلاسيكية. وهى خبرة هؤلاء الذين يتعاملون مع الأطفال، ويرتبطون بهم، ويدرسون أدبهم دراسة علمية.. وكثيرًا ما يلجأ هؤلاء إلى «ترك» طبعات جميلة أنيقة من كتب بذاتها فى أماكن يسهل على الأطفال اكتشافها منها، لأن للاكتشاف لذته الخاصة به، كما أن هؤلاء قد ينصحون الآباء بكتب معينة تقرأ بصوت عال على أبنائهم قبل أن يتعلموا قراءتها بأنفسهم.. لكن الأمر فى النهاية يبقى فى يد الأطفال وحدهم، إذ أنهم هم الذين «يقررون» نجاح كتاب ما بالنسبة لهم، وقد قالت لى ابنتى «لبنى» يومًا بعد قراءة (أليس فى بلاد العجائب): «هذا هو الكتاب الذى يفتح القلب و«النفس» بحق! إنه كتاب يغرد ويغنى!!

ومما لا شك فيه أن هذا مقياس آخر لاعتبار عمل ما «كلاسيكيًا».. أن يفتح القلب والنفس والعقل معًا، ويجعل الحياة أكثر ثراء ومتعة، ويشعر القارئ بحلاوة وجمال الدنيا، ويجعل لحظاتنا دسمة وشهية، ويدفع بنا إلى عالم كله موسيقى وغناء وتغريد!!..

وفى يقينى أن الكثير من الكتب التى وضعها كامل كيلانى من هذا اللون.. ومن هنا كان الإقبال عليها كبيرًا، ولقيت الاهتمام من جيلين متتابعين على الأقل..

وتضم الكلاسيكيات تحت جناحيها ألوانًا عدة من كتب الأطفال، يجدر بنا الإشارة إليها.. إن للمغامرات جاذبيتها، ومغنطيسيتها القوية، التى لا تقاوم، ولقصص الرحلات، والأعمال الجسورة، والشجاعة الفائقة سحرها الخاص بها.. وحتى الحكايات ذات الطابع العائلى، والتى تدور

داخـل جدران البيت، يمكن أن تشـد إليها الأطفـال لـو أنها اتصفت بالصدق والحيوية.. ولعل أعمال مارك توين هى المثل الواضح فى هذا المجال، وهناك أعمال لا يمكن أن تنتمى للأجيال المعاصرة ومع ذلك فهى تفتن الصغار، وإن كانت هـذه الأعمال قليلة، وربمـا كان معهـا هوارد بابل - صاحب مغامرات روبن هود - نموذجًا لهذا اللون الذى يمتـع الأطفال بصورة منقطعة النظير..

رسوم كتب الأطفال

والرسوم - بلا شك - إضافة كبيرة لهذه الأعمال الأدبية، وكثير من كتب الأطفال أصبح يمت للفنون التصويرية بقدر ما يمت لعالم الأدب، وأضحت اللوحات معرضًا فنيًا إلى جوار العمل الروائى.. وقد تخصصت دور نشرها بذاتها فى إعادة طبع هذه الكلاسيكيات بشكل جديد جذاب، لا يقاوم من قبل القراء الصغار.. ولم يكن ذلك بهدف زيادة المبيعات، والربح فحسب، بل إنها تثقف عيون الأطفال، وتدربهم على الاستمتاع بالفن التشكيلى.. ويحضرنى فى هذا المجال إخراج الفنان ناجى شـاكر لقصة أنا سويل الشهيرة عن حصانها الأسود الجميل التى ترجمتها ماما «لبنى» إلى العربية فى طبعة خاصة، وضع فيها الفنان اللوحات العالمية الشهيرة عن الحصان، من بينها تلك المحفورة على جدران معابد قدماء المصريين إلى رسوم بيكاسو.. إنها تسعون لوحة مبهرة، تسير جنبًا إلى جنب المغامرة المثيرة التى أحبها كل أطفال الدنيا..

وهناك داران للنشر يجدر بنا الالتفات إلى أعمالها فى هذا المجال خلال

النصف قرن الماضى.. أعنى بهما ماكدونالد، وماكميلان.. وقد نشرت «ألف ليلة» بريشة ماكسفيلد باريش، الذى أبدع لوحات درامية تعكس ذلك الجو الأسطورى لألف ليلة، وذلك الغنى والبذخ الشرقى، المتمثل فى القصور الذهبية وما يدور بداخلها من مظاهر الحياة المليئة بالسحر.. وللفنان المصرى مصطفى حسين، تجربة فى هذا المجال مع دار الشروق يمكن أن توضع إلى جانب الأعمال الفنية العالمية للأطفال، وإن عابها بعض القصور فى الجانب الأدبى، إذ كانت القصص مجرد سرد وتلخيص موجز للأحداث، وليست تناولاً جديدًا لها يتفق مع روعة الإخراج والرسوم وجودتها!

ولا تفوتنى هنا الإشارة إلى الفنان «محيى اللباد» ومحاولاته الجادة الجيدة فى إعادة رسم الكلاسيكيات العربية، إذ أرى فى هذه الرسوم إضافة كبيرة لفنون كتب الأطفال.. كما كانت للفنان «حلمى التونى» محاولات طيبة فى الستينات فى كتب الهلال للأطفال..

شجرة أدب الأطفال

وتحت يدى الكثير من القوائم لكتب الأطفال الكلاسيكية.. بعضها من دور للنشر، والبعض الآخر من هيئات ثقافية لها دورها فى مجال أدب الأطفال، وأخص بالذكر دار «هورن بوك» فى بوستن، وهى تصدر مجلة عن كتب الأطفال مرة كل شهرين، وقد تجاوز عمرها الخمسين عامًا.. وقد رأيت أن أستفيد بهذه القوائم، التى أراها تصلح لأطفال أوربا وأمريكا، غير أنها تحتاج إلى مراجعة: بالحذف والإضافة حين نقدمها

لطفلنا العربى.. ولعل هذا هو ما دفعنى إلى أن أحاول التأريخ لأدب الأطفال عالميًا، بعد أن ثبت لى أن لكثيرين من العالمين فى هذا المجال لا يلمون بهذا التأريخ، ولا يولونه اهتمامًا كافيًا، إذ وقفت معلومات بعضهم عند «هانزاندرسون».. أى عند الرائد الذى رحل منذ قرابة قرن ونصف القرن!

إن شجرة أدب الأطفال لها بذورها.. إنهم هؤلاء الذين رووا حكايات شعبية: جمعوها وصاغوها.. وبعضهم من مبدعى قصص المواعظ، ويقف على رأس هؤلاء: أيوب، ومعه ابن المقفع صاحب كليلة ودمنة، واشتهر الإخوان جريم - فى ألمانيا - فى هذا المجال شهرة كبيرة، كما عرف العالم شارل بيرو الفرنسى، ومن بعده لافونتين، وفى إنجلترا ظهر جوزيف جاكوبز وأندرو لانج، وكان كريلوف الروسى ممن ساهموا بجهد وحكايات معروفة ومحبوبة فى كل الدنيا، وجمع هاريس قصص الزنوج فى أمريكا ونشرها تحت عنوان: حكايات العم ريموس.. وفى النرويج كان أسبيورنسون أول من قام بهذه المهمة.. وقد نشرت الهيئة العامة للكتاب فى مصر قصة هؤلاء الرواد، مع مجموعة من حكاياتهم فى كتاب لى يحمل عنوان «البذور».

كتب الكبار التى أعجبت الأطفال

وقد عاش الأطفال طويلًا عالة على كتب الكبار، أحبوا بعضها حبًا كبيرًا، ونهض بعض الكتاب بعبء تبسيط هذه الأعمال التى استهوت كل الأعمار، فأقبلوا عليها إقبالًا منقطع النظير.. ولدينا قائمة طويلة بهذه الأعمال - التى نرى أنها جذور شجرة أدب الأطفال.. وتضم القائمة

عـددًا كبيـرًا من الكتب التى أصبحت من الكـلاسيكيـات، إذ راحت الأجيال المتعاقبة تقرؤها فى لهفة واهتمام كبيرين.. من هذه الكتب «رحلة الحاج» عن جون بايتان وصدرت عام (١٦٧٨) و«بيتريان» عن جيمس بارى (١٧١٥)، و«رينسون كروزو» عن دنيال ديفو (١٧١٩) و«رحلات جاليفر» عن جونثان سويفت (١٧٢٦)، و«أنشودة عيد الميلاد» و«قصة مدينتين» عن شـارلز ديكنـز (١٨٤٣) و«رحلة العجائب» عن نـاثال هُوثورن (١٨٥٢)، و«نساء صغيرات» عن لويزا الكون (١٨٦٨) و«توم سوبر» عن «مارك توين» (١٨٧٦)، و«بلاك بيوتى» أى الحصان الأسود الجميـل، عن أنا سـويل (١٨٨٣) «وروبن هـود» عن هوارد بـابـل (١٨٨٤).. يضاف إلى ذلك «دون كيشـوت» عن سرفـانتس، والأمير السعيد عن أوسكار دايلر، وجزيرة الكنز عن روبرت لويس ستيفنسون، ومغامرات منشوزن عن الألمانى راسب، و«موبى ديك» التى كتبها هرمان ملفيل.. إلى جانب كتب جول فيرن.. وقصص ديكنز الأخرى أقرب إلى الأطفال مثل ديفيد كوبر فيلد، الآمال الكبيرة اوليفر تـوتيرت» لأنها روايات أبطالها أولاد وفتيان.

وفى العربية نستطيع أن نقول: إن بعض الكتب الموضوعة للكبار قد أعجبت الأطفال، ونذكر فى هذا المجال قصص توفيق الحكيم «عـودة الروح» و«حمار الحكيم» وغيرهما، وكتب عـلى الجارم، وكـذلك أنيس منصور، وبالذات «حول العالم فى ٢٠٠ يوم»..

هذه – فيما أرى – الكتب التى لم توجه أصلا للأطفال، ورغم ذلك لقيت منهم الحب والإقبال، واستطاع كثيرون منهم قراءتها بشغف واهتمام

كبيرين.. وقد سجلت قصص هذه الكتب ومؤلفيها فى كتاب عنوانه «الجذور»..

الرواد المعاصرون

والذين يؤرخون لأدب الأطفال يقولون دومًا إنه بدأ منذ أمسك هانز كريستيان أندرسون الدنمركى بالقلم ليكتب حكاياته الرائعة، وكان ذلك فى عام ١٨٤٦، وما بعدها.. ويأتى لويس كارول، ليقدم انعطافة حادة، ورائعة فى أدب الأطفال (١٨٦٥) بقصته الرائعة: (أليس فى بلاد العجائب).. وفى نفس السنة صدرت فى أمريكا قصة هانزبرينكراد «القبقاب الذهبى» للكاتبة مارى مابس دودج، وقد بهرت الأطفال، وأحبوها كثيرًا، وتعتبر من التراث الأمريكى فى أدب الأطفال.. وفى عام ١٨٨٠، ظهرت رائعة كارلو كولدالى «بونوكيو» وهى قصة عروس خشبية تقوم بمغامرات رائعة، ومن خلال ذلك نتعرف على عالم الطفولة الحافل بالإثارة، وقد ترجمت هذه القصة عن الإيطالية إلى أغلب لغات العالم.. وفى عام ١٨٨٤ ظهرت قصة «هيدى» من تأليف جوهانا سبيرى.. ثم توقف العالم عند ريدارد كبلنج صاحب «قصص الأدغال» و«حكايات موجلى».. وقد حاز جائزة نوبل، وقدم للأطفال أعمالاً جميلة.. وقرأ الأطفال كذلك قصص سلمى لاجولوف - الحائزة على جائزة نوبل أيضًا، ولعل كتابها مغامرات نيلز هلجرسون، واحد من أعظم كلاسيكيات كتب الأطفال فى العالم.. وظهر فى أمريكا فاندريك فان دى لون صاحب قصة البشرية، وهيوج لوفتنج مؤلف قصص دكتور روليتيل وفرانك بوم الذى كتب «ساحر أوز».. وكانت لوراويلدر أنجلز صاحبة

بيت صغير فى البرارى، من الكاتبات اللاتى لقين من القراء الصغار اقبالا منقطع النظير، وقد بدأت تكتب أعمالها التسعة للأطفال - لأول مرة - وعمرها خمسة وستون عامًا، وأنجزتها وهى فى التسعين!.. وهناك تولكين صاحب «الهويز» وهى مخلوقات غريبة، أصغر من الأقزام لها حياتها الخاصة، ومن خلالها يقدم الكاتب أفكاره وقيمه.. وربما كانت «تاف يانسون» الفنلندية هى خير من قدم هذه «الشخصيات الأسطورية» فى كتبها «مومونز».. وقد حصلت بها على جائزة هانز كريستيان أندرسون..

ولا يفوتنى أن أشير إلى (ويس) وروايته (عائلة روبنسون السويسرية).. والى (كيت دوجلاس ويجن) وقصتها «ربيكا»، وإلى باميلا ترفيرس صاحبة (مارى بوينز) الشهيرة.. وأتوقف أيضا عند كليف لويس مؤلف (الأسد والساحرة والدولاب)..، والقائمة طويلة، وقد بات من الضرورى أن يكون هناك دليل بين أيدى الآباء والأمهات، يعرفون منه: ما الذى يناسب أبناءهم، وبناتهم، فى مراحل العمر المختلفة من قراءات جادة بناءة.. إذ أن ميكى وتان تان وسوبرمان وغير ذلك من الشخصيات قد طغت على قراءات الأبناء بشكل مؤسف.. بجانب البوليسيات..

الكتب العربية للأطفال

والكثير من الكتب التى أشرت إليها لم يترجم بعد.. والكتب العربية التى يمكن أن يقال عنها: إنها كلاسيكيات للأطفال - وفق الشروط التى سبق أن أشرت إليها - قليلة فى عددها، إذ لم تقرأ عدة أجيال القصص العربية الصادرة للأطفال، لأن أدبنا وليد، وقد مر بمرحلة الترجمة والنقل

والاقتباس على يد المرحوم كامل كيلانى، رائد أدب الأطفال فى وطننا العربى..، وكتبه هى التى قرأها جيل سابق، وما زالت بين أيدى الأبناء فى الجيل الحاضر، وقد فتح للأطفال نافذة على الأدب العالمى، كما فتح نافذة أخرى على تراثنا العربى..، ومن بعده يأتى سعيد العريان صاحب (رحلات سندباد)..، ولا نستطيع أن نقول: إن ما كتب بعدهما يعتبر كلاسيكيات لأن التأليف للأطفال عمره قصير.. لكن لا بأس من الإشارة إلى أعمال سليمان العيسى، وزكريا تامر من سوريا، وشريف الراس، وفاروق سلوم من العراق، وحسن حسون من السودان، ومن مصر ماما لبنى، وأحمد نجيب وجمال أبو رية، وسمير عبد الباقى ونادر أبو الفتوح وغيرهم ممن يحاولون اللحاق بالركب العالمى مكتبة الطفل العربى ومعهم...

وقد كانت لنا محاولة لترجمة كلاسيكيات أدب الأطفال العالمية فى مشروع ضخم تبنته وزارة الثقافة والمركز القومى لثقافة الأطفال، إلا أن يدًا أثيمة امتدت له بالتدمير.

سهير القلماوى
وأحاديث جدتى وألف ليلة وليلة

هذه السيدة لم تكتب للأطفال، بل كتبت للكبار.. هل تتساءلون: ولماذا نضع اسمها هنا؟ سوف تعرفون السر.. إنه بسيط.. هى بكل المقاييس «أم» لكتاب الأطفال، ألا يعطيها ذلك مكانًا بين الذين وضعوا بذور ثقافة الأطفال، ومدوا جذورها فى أرضنا؟

إن حكايتها مع الأطفال بدأت مبكرة.. والاهتمام بهم صحبها عمرًا كاملاً.. وقد ترجمت ذلك بشكل أو آخر خلال رحلتها الطويلة مع الثقافة والأدب.. وارتبط اسمها بكتابين لهما عند الطفولة مكانة كبيرة (أحاديث جدتى) و(ألف ليلة وليلة).. ولن تدركوا روعة ما صنعت هذه السيدة لأدب الأطفال وثقافتهم إلا إذا قرأتم حكايتها من البداية.. من الطفولة..

كانت أمًا منذ طفولتها..

فى الصغر، كانت ترعى الدمى والعرائس، لم تكن تلعب بها بقدر ما تهتم بثيابها، ونظافتها، وأناقتها، وهى تحكى لها الحكايات، وتقوم نحوها بدور الأم، إلى حدّ أنها قالت يومًا لوالدتها، وهى لم تتجاوز الثامنة من العمر..

– لن أذهب إلى المدرسة اليوم.

وفزعت الوالدة، وخشيت أن تكون ابنتها مريضة، فسألتها فى قلق ولهفة:

– لماذا؟! ماذا بك؟.

– ليس بى شىء، لكنها عروستى.. أحسّ أن درجة حرارتها مرتفعة، وتحتاج منى إلى أن أبقى بجانبها!! وكبرت، وكبرت معها أمومتها..

كانت زميلاتها وصديقاتها يتعاملن معها باحترام كبير، وكل منهن تشعر أنها إزاء «أم صغيرة»: تعطف، وتعين، وتساعد فى حنان ورقة..

وعملت فى الجامعة.. كانت صغيرة فارق السن بينها وبين طالباتها وطلبتها ليس بالكبير، غير أنها كانت دائمًا تمنح هذا الشعور لهم، إحساسهم نحوها دائمًا بالبنوة، لفرط عذوبة معاملتها، ولطف تعاونها..

وعندما أصبحت أمًا لطفلين.. أمًا حقيقية، ولدتها، فاضت مشاعر الأمومة لديها، ولم تقصر حبها عليهما بل على كل الأبناء والبنات ممن حولها..

وهى خلال ذلك كله توجه، وتعلم، وتربى..

وفى سن مبكرة، تذكرت حكايات جدتها لها، وهى طفلة، وسألت نفسها:

- لماذا أحتفظ بها لنفسى؟ لم لا يستمتع الآخرون بهذه الحكايات كما استمتعت بها؟.. لكن، كيف السبيل إلى ذلك؟!

إنها لا تستطيع أن تجمع الأطفال من حولها - وهى فى العشرينات من عمرها - لكى تروى لهم هذه الحكايات، لأنها تريد أن يسمعها العشرات، والمئات، بل والألوف..

ولم تكن أجهزة الإعلام بهذا الانتشار، فقد ألحت عليها هذه الأفكار فى منتصف الثلاثينات من هذا القرن.. وامتدت يدها إلى قلمها تسجل «أحاديث جدتى».. وحملت أوراقها إلى أستاذها، العميد الدكتور طه حسين.. وقرأت الأحاديث عليه، وذهبت يومًا تسأله رأيه، وإذا بها أمام مفاجأة كبيرة.. لقد أملى مقدمة لهذه الأحاديث.. مادحًا، مشجعًا.

ونشر كتاب «أحاديث جدتى»..

وأحدث نشر الكتاب ضجة كبيرة.. إن الناس لم يتعودوا هذه السلاسة والبساطة، فقد كانت محاولات الكتّاب والمؤلفين يومئذ أن يعمدوا إلى الأساليب الجزلة المعقدة، ويختارون الكلمات الصعبة القديمة ليقال إنهم «أدباء».. ويقرأ «الكبار» كتابها، ولكن الأطفال يجتذبهم العنوان، فيقبلون على القراءة، وقد تصادفهم بعض صعوبات، لكنهم يفهمون كل شىء من السياق، ويستمتعون بالكتاب أيا استمتاع، على الرغم من أنه بدون صور.

ومرت قرابة نصف قرن على صدور هذا الكتاب.. وإذا بواحد من

الذين قرءوا الكتاب وهم أطفال يعيد قراءته.. ويفكر فى أن يقوم بتبسيطه.. لم يغير من الكلمات والعبارات لكنه اختصرها، وجعلها قصيرة بالفواصل، والنقاط، وتركها شحنات حب للوطن والناس..

وقد لقى كتاب (من حكايات جدتى)، بعض العقوق، لكنه يظهر بعد خمسة عشر عامًا، من إعداده للأطفال، يظهر فى ثوب قشيب، ورسوم جميلة للفنانة فريدة عويس، وذلك من الهيئة العامة للكتاب.. التى رأست د. سهير القلماوى مجلس إدارتها لسنوات طويلة.. وقرأ الأطفال «المربية المخلصة» و«التل الكبير» و«خديعة هكس» و«رحلة طفلة».. وقرأ الأطفال هذه الكلمات فى المقدمة..

عندما عثرت على كتاب أحاديث جدتى فى مكتبة «البلدية» فى بنى سويف، كنت صغيرًا.. لكننى عكفت عليه حتى قرأته، واستمتعت به كثيرًا، واستطعت أن أقتنى نسخة - ما زالت عندى - وحملتها معى فى الإجازة إلى قريتى، حيث الوقت طويل ممتد كالخضرة والجسور والأفق.. ورحت أقرأ هذا الكتاب مرة، ومرة، حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب.. وقررت فى ذلك الحين أن تكون هذه السيدة «سهير القلماوى» جدتى، فإننى لم أر جدة لى..

ثم كان لقائى بها عن بُعد.. تسللت إلى واحد من مدرجات كلية الآداب أستمع إليها فى محاضرة، بعدها رجعت كى أتطلع إليها، وسألتها عن شىء لا أذكره لمجرد أن تسمعنى، وترد علىّ، وتوجه الحديث إلىّ.. وكانت أمى فى ذلك الحين بعيدة عنى ورأيت أن د. سهير القلماوى أصغر من أن تكون «جدة»، إنها «أمى» بعد «أمى»..

وتابعتها.. قرأت كتبها، وأعددت واحدة من قصصها لمهرجان القصة العربية الذى أقمته فى صوت العرب على مدى تجاوز المائة حلقة، اخترت لها أجمل ما كتب من قصص عربية حتى ذلك الحين، ورأيت أن قصتها «وهدمنا الجبل» واحدة منها.. كما أننى ذات مرة استطعت أن أجعل منها «راوية» لواحد من برامجى، كان عنوانه «أيام زمان» نحكى فيه أحداث عام مضى بتفاصيله الكثيرة، وتتخلله مقاطع تمثيلية، ومن أجل إضفاء صفة الجدية والعلمية عليه. اقترحت على مخرجه الأستاذ سعد لبيب أن تكون د. سهير القلماوى هى الراوية، وقبل اقتراحى، وجاءت هى لتؤدى الدور، الأمر الذى جعل البرنامج يحقق نجاحًا كبيرًا..

وصدر كتابها عن ألف ليلة، ولم أكن قد قرأتها إذ حرّمها علىّ أبى – رحمه الله – ولكننى كنت قد سمعت الكثير من حكاياتها من الرواة فى قريتى، كأنما لتبقى أثرًا شعبيًا عالقًا بذهنى ووجدانى.. وقرأت كتاب د. سهير القلماوى عن ألف ليلة وأنا طالب جامعى.. وقد أخذنى من يدى لكى أدع كتب الاقتصاد والعلوم السياسية، وألتهم قصص ألف ليلة..

أنتم تعرفون – وكل العالم – «على بابا» و«علاء الدين والمصباح العجيب» و«السندباد البحرى».. إنها من أجمل حكايات الدنيا.. لقد روتها شهرزاد على الملك شهريار الذى كان يتزوج كل يوم من فتاة، ومع الصباح يتخلص منها للأبد، وجاءت شهرزاد لتسحره بحكايات لم يستطع منها أن يمد لها يد السوء، بل أبقى على حياتها لتحكى وتحكى وتحكى.. وترجمت هذه الحكايات.. نقلها إلى الفرنسية انطوان جالان.. ونقلها إلى

الإنجليزية ادوارد لين، وبيرتون.. كما ترجمت إلى أغلب لغات العالم، وظهرت عشرات من قصصها مبسطة للأطفال..

وكانت د. سهير القلماوى قد أعجبت بألف ليلة، واستمتعت بها، وعندما بدأ الاهتمام بهذه الحكايات الفريدة اتجهت إليها، فكتبت عنها واحدا من أروع الدراسات، وجعلت من ألف ليلة لا مجرد حكايات بل جعلت منها عملاً شعبيًا يستحق الوقوف عنده، ودراسة من كل جوانبه..

وكان لابد من أن تهتم لمواجهة (أحاديث جدتى) ودراسة (ألف ليلة) بالأطفال عندما كبرت.. لقد أصبحت أستاذة جامعية، تلقى العلم على يديها الألوف، كما أصبحت كاتبة كبيرة تقرأ العيون والعقول والقلوب مقالاتها وكتبها، وصارت رئيسة لهيئة الكتاب، فأقامت له عيدًا ومعرضًا نقلته عنا أغلب بلدان وطننا العربى.. لكن كل ذلك لم ينسها الأطفال فى مصر والوطن العربى، فوقفت وراء جمعية ثقافة الأطفال تساندها، ثم رأست لجنة ثقافة الأطفال بالمجلس الأعلى للثقافة، وشجعت كتب الأطفال ومؤلفيها، وصارت «أما» لهم فى أمتنا كلها، واحتضنتهم بالحب.. ومن بين هؤلاء كاتب هذه السطور..

وحتى ذلك الحين، فى منتصف الستينات، لم تكن قد عرفتنى.. كان لها عندى رصيد كبير، وعندما لقيتنى كانت المناسبة أننى واحد من المهتمين بالكتابة للطفل، وأنادى بما هو أبعد من ذلك، ألا وهو «ثقافة الطفل»، وجلست بين يديها طالبا لعلمها.. وعرفتنى.. واشتركت معها فى ندوة، ولأول مرة أجلس إلى جانبها.. ويومها أيدت اقتراحى الخاص بإنشاء جمعية لثقافة الأطفال، وباركت خطواتى من أجلها، وعندما قامت على

قدميها.. وعرضنا على د. سهير القلماوى أن ترأسها اعتذرت ودفعت بنا إلى أن نتحمل المسئولية كاملة، وهى من ورائنا فى دار الأدباء تساندنا.

وعندما اقترحت على المرحوم الأستاذ يوسف السباعى إنشاء لجنة لثقافة الطفل بالمجلس الأعلى للفنون والآداب - حينئذ تحمس للفكرة، وكان يرعى جمعيتنا فى الدار، وعندما سألنى عمن يمكن أن يكون مقرر هذه اللجنة، ذكرت اسمها بحماسة، قائلا إنه ما من أحد غيرها، يستطيع أن ينهض بهذه المهمة.. وأيد قولى، وذكر أنها عضو بالمجلس الأعلى للفنون، وهذا شرط فى المقرر.. وبدأت اللجنة تجتمع، وأنا وزوجتى من أعضائها..

وأعترف أن الكثير من مقترحاتى ما كان يمكن أن ترى النور لولاها، ولولا تشجيعها لى، ومساندتها.. ولكننا اختلفنا كثيرًا.. خلاف فيه عنف خلال الأبناء والآباء.. كان تريدنى ابنًا مطيعًا، وكنت أريدها أما لابن شب عن الطوق... وكان أن انصرفت مرة عن اللجنة لعام كامل، واستقلت فيها مرة أخرى، ورفضت استقالتى.. وكانت الثعابين بفحيحها تحاول توسيع الهوة، تقول:

- مالها وثقافة الأطفال؟ هى أستاذة أدب، وكاتبة، لكن لماذا يقحمونها فى هذا العمل؟ لماذا يفرضونها؟!... تخلصوا منها!!!

وكنت أرفض هذه الكلمات، بل أحمل إليها - رغم الخلاف - أفكارى لكى تنصحنى.. ولن أنس يوم فرحت بخاطرة فى ذهنى.. أن أكتب للأطفال كتابًا بعنوان الخيال والحقيقة.. أتحدث فى صفحة عن قصة بساط الريح، وفى الصفحة التالية أقدم كيف تحول هذا الخيال إلى حقيقة

هى الطائرة.. وكنت سعيدًا بالفكرة فخورًا بها، وإذا بالدكتورة سهير القلماوى تقول لى..

– لماذا تريد أن تغلق باب الخيال أمام الطفل؟!..

وانهارت الفكرة وانصرفت عنها.. وأحنيت رأسى لها.. وما زلت أحنيها، للتى يقولون أنها أقحمت وفرضت، وما ذلك بصحيح.. نحّوها، يا سادتى، لكنها ستظل رائدة، ويوم يكتب تاريخ ثقافة الأطفال وأدبهم سوف يحتل اسمها مكان الصدارة..

وحلقات البحث والدراسة التى عقدت بفضلها كثيرة.. ولست أنسى يوم سافرت إلى مانيلا فى الفلبين لكى أشارك فى حلقة لكتاب آسيا وأفريقيا عن أدب الأطفال، ويتصادف أن ترأس هى الجلسة التى سألقى فيها بحثى، ويعلم أن كم اجتاحنى الفرح لذلك، وما نسيت تعقيبها. ومنا زال منقوشًا على صفحة قلبى وذاكرتى.. يومها كان بودى أن احتف لها إنى أحبها، لكننا أهل الريف لا نقول هذه العبارة لأمهاتنا، ولكننى حاولت خلال تصرفاتى أن أعلن عن هذا الحب الكبير الذى يغمر قلبى تجاهها، فاتجهت منذ سنوات بعيدة إلى كتابها (حكايات جدتى)، لكى أبسطه وأيسره للأبناء، ليستمتعوا به، وكان ذلك تأكيدًا لتجربة قامت بها وهى تلقى علينا محاضراتها فى نادى القصة.. إن الأطفال قادرون على قراءة الكثير لو أننا عرضناه فى سلاسة ويسر.. ويومها قرأت علينا صفحة كاملة من كتاب قديم، لعله الفرج بعد الشدة للتنوخى، وشهدنا جميعا بأن الصغار يمكنهم فهمه.. ولم أدخل قلمى على كتاباتها، فقط اخترت هذه الصفحات، التى ما زال طعم حلاوتها على لسانى.. صحبنى هذا الطعم عمرًا كاملًا!

ولقد صار أمل عمرى اليوم أن أرى ابنتى «لبنى» أستاذه مثل د. سهير القلماوى.. بل، لعلها كانت المثل الأعلى الذى وضعتُه أمامى، متمنيًا إياه لأبنتى.. وقد وضعت أقدامها على طريق الحياة الجامعية معيدة بكلية الآداب.. ثم مدرسة مساعدة بعد الماجستير، من نيو ميكسيكو بأمريكا ومدرسة بعد أن حصلت على الدكتوراة من جامعة القاهرة.. أنها تسير على خطى أستاذتنا الجليلة.

لم تكتب د. سهير القلماوى للأطفال، لكنها كانت دائمًا راعية لأقلام كتاب الأطفال وجهودهم وإنتاجهم ساندتهم.. شجعتهم.. منحتهم الجوائز.. أقامت من أجلهم حلقات التدريب.. عقدت المؤتمرات، والندوات العديدة، وشجعت كتابة البحوث.. وإذا ما نبتت فى وطننا العربى أقلام تكتب للأطفال فلا شك أنها واضعة بذرة هذا الاهتمام بهم، وأنها روت هذا النبت ليشب ويكبر وينمو، ويخضر ويزهر ويثمر.. لقد غرست جذور الاهتمام الكبير بأدب الأطفال وثقافتهم، فامتدت هذه الجذور عميقة أصيلة فى تربتنا.

محمد محمود شعبان
«بابا شارو» و«الطفل» و«الإذاعة»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾
صدق الله العظيم (سورة النحل - آية ٧٨)

قبل البداية

الود والحب، والاحترام والتقدير، أحمله على مدى ثلث قرن للعزيز «بابا شارو»، وكنت أناديه «بابا»، وما زلت أستمتع بها، خاصة ولقائى به كان بعد أن حرمت من هذا النداء الحبيب بوفاة أبى..

وعلى الصفحة الأولى من كتابى للأطفال «أذان الديك وقصص أخرى» كتبت هذا الإهداء عام ١٩٧٩.. العام الدولى للطفل...

إهـداء

إلى «بـابـا شـــارو»

عندما حملت إليك أولى أعمالى للأطفال، جعلتنى أعيد صياغتها خمس مرات، وسألتنى:

- هل أنت صبور لمثل هذه المهمة؟

ومع عملى الثانى، قلت لى..

- أنت كاتب أطفال!

وبعد خمسة وعشرين عامًا، صدر لى ما يزيد على خمسة وستين كتابًا، أرجو أن تقبل واحـدًا منها، اعتـرافًا بفضلك، وإقـرارًا بفضيلة اسمها «الصبر» حاولت أن تزرعها فى قلب العاملين فى هذا المجـال، والذين خرج أغلبهم من عباءتك: فضيلة توفيق فى الإذاعة، سميحة عبد الرحمن فى التليفزيون، نتيلة راشد فى الصحافة، حسين فياض فى المسرح.. وفى مجال الكتاب، ابنك المخلص دائمًا..

عبد التواب يوسف

«بابا شارو»

- من هو؟!

* هو «محمد محمود شعبان»..

- نحن كالذى يُعَرِّف الماء بعد الجهد بأنه الماء..

* هل يزعم أحد أنه قد عرفه بقدرٍ كاف؟!..

لقد سمعناه، وسمعنا عنه، واقترب منه كثيرون، لكن يخطئ. من يظن أنه يعرفه تمام المعرفة، إذ هو قليل الكلام، قلما يفصح عن نفسه، ويدع أعماله ومواقفه تتحدث عنه.. بل حتى تعبير وجهه لا يكشف عن حقيقة أعماقه ومشاعره.. لمع، ونجح، وأبعِد، واضطهد، وعاد، وترك العمل، ووصل إلى قمته، وأحيل إلى المعاش، وبقى كما هو..

.. لم يكن له مقعد أستاذيه فى الجامعة، ولا هو بمؤلف لقصص الأطفال، بل كتاباته لهم قليلة ونادرة..

والسؤال الذى يطرح نفسه..

- كيف واتته هذه الشهرة العريضة؟ أهى الإذاعة وحدها؟ هل سعى إلى نشر اسمه وإذاعته وتأكيده، أم عرفه الناس دون جهد إعلامى عن نفسه؟!

كثيرون يقدمون برامج الأطفال، وغير الأطفال، ولم يحظوا بمثل هذه الشهرة.. مثلاً: هل حقق من جاءوا بعده نفس «النجومية»؟!.. أزعم أن كثيرين ممن يقدمون برامج الأطفال فى الإذاعة على مدى سنوات لم يسمع بهم أحد، بل إننى لأتساءل بعد ثلث قرن من العمل الإذاعى للأطفال من عرفنى من خلاله؟!..

«بابا شارو» ومدرسة
إذاعية فى برامج الأطفال

فى عام ١٩٤٤ بدأت فى مجال الأطفال تجربة ثرية من خلال ميكرفون الإذاعة، وكان صوتها قد انطلق قبل ذلك بعشر سنوات، ولم تغفل هذه الشريحة الهامة من مستمعيها، ونعنى بها الأجيال الجديدة الصاعدة، واختارت لها عدة أسماء، أسماء عملت طويلًا فى مرحلة اتسمت برامجها بالطابع المدرسى التعليمى المحض.. وهكذا عرف المستمعون الصغار «أبلة زوزو» و«بابا صادق».. ثم «أحمد خيرت» فى تاريخ لاحق..

وكان مقدم البرنامج – أو مقدمته – يتحمل مسئولية البرنامج كاملة، فهو يكتب مواده، ويعدها، ويأتى بمن يؤدونها، كما يصطحب فرقة موسيقية، ومغنين، ومنشدين.. وكان أغلب هؤلاء ممن لهم صلة بوزارة المعارف حينئذ، وكانت برامجهم بالطبع امتدادًا لما يجرى داخل أروقة المدارس من نشاطات خارج حجرات الدراسة، وكان الاهتمام بهذه النشاطات الموسيقية – غالبًا – شديد الوضوح، من تدريب على العزف وتمرين على الإنشاد.. وكان مقدمو البرنامج يستخدمون لهجة خطابية ونبرة عالية فى أحاديثهم للأطفال، وامتلأت هذه الأحاديث بالمواعظ المباشرة والإرشادات والتوجيهات..

ولم يحتفظ لنا الزمن بالكثير مما كان يقدم فى هذه البرامج، لكن «بابا صادق» كانت له مجلة، ربما نستطيع من خلالها أن نتعرف على بعض

جوانب من المواد التى كانت تأخذ طريقها إلى مستمعيه من الأطفال.. وقد استمر صدور هذه المجلة حتى بعد أن كف بابا صادق عن تقديم برامجه فى الإذاعة..

لابد أن وراء الأمر سرًّا ما.. قد يكون إنه إنسان «مشع» أعنى بذلك، أنه يضفى على نفسه وعمله أضواء، تجتذب إليه الأنظار، وتشد الأسماع إلى صوته الهادئ الرائق الوديع.. ثم إنه «إذاعى» بكل ما تعنيه هذه الكلمة.. هو «إذاعى» يعرف أهداف الإذاعة وأهدافه: إنه لم يقحم نفسه على النظريات التربوية وعلم النفس، بل كان بسليقته مدركًا لما يجب عليه وعلى الإذاعة: هى تعلّم ولكنها ليست مدرسة، وهى «توجّه» وليست منبر واعظ، وهى ترفه غير أنها ليست «ملهى ليلى»، هى تثقّف دون تقعر وادعاء.. وهى تنبئ، وتعلم - من الإعلام - دون أن تكون بوقًا يردد ما يريده السادة.. ومن هنا جاء نجاحه وتوفيقه وشهرته العريضة.

لم يكن يجامل على حساب العمل، أو على حساب نفسه.. بل لم نكن نعرف من هو المقرب إليه عاطفيًّا، ومن لا يرضى عنهم، لسبب بسيط، هو أنه كان يبدو موضوعيًّا إلى درجة ينسينا خلالها مزاجه الشخصى، وعواطفه.. بل لقد كانت مفاجأة لى أن نقل إلىّ طاهر أبو فاشا - أكثر أصدقائه اقترابًا منه وتعاملاً معه، وتعارفًا فى ألف ليلة وغيرها - نقل إلىّ كيف أفلتت من بابا شارو كلمات كثيرة عبّر فيها عن تقديره الشخصى لى، بل «حبه الكبير» الأمر الذى لم يشعرنى به، ولم يحاول مرة أنه ينقله إلىّ.. وقد تعاملت مع «بابا شارو» عمرى كله على أساس ما سمعته هذا، ولم أسمعه منه.. واحترمت صمته وعالمه الذى لا يريد أن يقتحمه أحد،

هو لا يسمح لنفسه باختراق عالم الآخرين، ولا يسمح لهم باختراق عالمه.. هناك دائمًا «حدود».. هناك القليل مسموح به، وهناك الكثير «ممنوع».. ومن هنا قلت صراعاته الشخصية، ونمت شهرته موضوعيًا، إلى درجة كبيرة، أعرف عن يقين أنها كانت من عوامل رضائه عن نفسه، بل وسعادته..

هذه بطاقة تعريف.. لا تزيدنا به معرفة!

وقد حرصنا على أن ننقل بعض الصفحات ذات الدلالات الخاصة، فاخترنا الصفحة الأولى من العدد ١٧ من السنة الأولى، واخترنا أوبريت - له طابعه العلمى الخيالى - كانت الإذاعة قد قدمته قبل نشره، وهو يدل دلالة قاطعة على أن البرامج جمعت بين العلم والطرافة، فى إطار شيق جذاب.. ثم اخترنا قصة من (حديثى مع أطفالى) كنموذج للحكايات التى كان يكتبها ويذيعها.. ودراستها تكشف عن تقدم - قد لا يتصوره البعض - شكلًا ومضمونًا، ونشعر أنهم كانوا على وعى بالمادة المناسبة للأطفال فى ذلك الوقت المبكر، ولم يكن قد مر أكثر من عام إنشاء الإذاعة..

مجلة بابا صادق

اسمعوا. اسمعوا

أنتم تعرفون يا أطفالى أن الطفل المصرى لا يجب أن يشتغل بشىء مطلقًا وهو صغير.

ولكن فى بلاد أمريكا يعوّدون الأطفال من صغرهم على الجهاد، والاشتغال بالأعمال الحرة، فالطفل فى بلاد أمريكا إذا خرج من المدرسة بعد الساعة الرابعة يخرج ويبيع مجلات وجرائد، وأقلام رصاص، وكل ما يربحه فهو له، فإذا كبر تراه غنيًا ذا ثروة واسعة، والناس هناك يحترمون هؤلاء الأطفال الذين يعملون هذه الأعمال.

أنتم طبعًا لا تحتقرون البائع، ولا تحتقرون الصانع، ويجب علينا أن نحترمهم، ونحترم كل إنسان يعمل عملًا شريفًا حرا.

هناك يا أطفالى لا يحبون أبدًا التوظف فى الحكومة. إنما هم يحبون الأعمال الحرة لأن فيها السعادة، وفيها الثروة، وفيها الجهاد، فلابد أن تعملوا كما يعمل هؤلاء الأطفال العظام اسمعوا. اسمعوا قصة ظريفة سأقصها عليكم.

بائع البالونات

١ - كان جاك كما ترونه فى الصورة ولدًا صغيرًا لطيفًا. وكان هذا الولد يبيع (البالونات).

وفى ذات يوم بينما كان يسير مع كلبه اللطيف (فلور) قال جاك: يا فلور، أنا اليوم فى شدة الأسف، ماذا أصنع؟ لم أبع شيئًا مطلقًا، ولا بالونة واحدة، ولابد أن سيدى سيضربنى ويقول لى: أنت ولد كسول مهمل يا جاك، كنت تلعب طول يومك، لم تبع شيئًا، وماذا أصنع وماذا أقول له؟

ديوان الأطفال

للأستاذ المربى الفاضل عبد الحليم مرسى أفندى

محاورة بين الشمس والقمر والنجوم

أذاعتها للأطفال المربية الفاضلة السيدة زكية عبد الحميد سليمان.

القمر:

مين زيبى يشبهنى فى حسنى ... مين زيبى ف جمالى موجود؟
نورى جميل أبيض هادى ... ما بتنكويش من نورى جلود
عبدوا زمان الشمس كثير ... وأنا اللى كان حقى المعبود

النجوم:

البدر بيغالى ف وصفه ... لأنه داخله غرور فى النفس
يا بدر إيه انت ونورك ... لما تكون أعظم م الشمس

القمر:

إنت يـانجمـة انت وهيـه إيش داخلك بينـا إحنـا؟
إحنـا ملوك النـور ف الكـون وانتـو خـدام ف بـلاطنـا

النجوم:

إن كنـا نسمـع حـد يعيب فى حق حـد يكـون غـايب
لازم بكـل شهـامـه نقـوم نسكـتـه مـادام عـايب
الشمس ملكـه.. وإخـلاصنـا لـلعـرش والمـولى واجـب

القمر:

أنـا القمـر وانتـو تـوابعى أنـا ملك بـينكـو وأكـثر
وازاى تـوابعـى تعـارضنى ف حقـوقى كـده وتستهـتر

النجوم:

إن كنت فينـا عـظيم وكبـير الحـق لـه دولـه أكـبر
يـابـدر قـلل مـن تيـهـك واوعـى ف غـرورك تـغـرق
واعـرف لنفسك مقـدارهـا وحـاسب (السكين) تسـرق
يـاشـمس يـا أم الأنـوار طُـلى عـلينـا بـأنـوارك
وكـلمـى الـبـدر الغـيـار وبـيـنى لـه أفـضـالـك

الشمس :

دا كل شيء قاله سمعته ... وكل كلمة لفظها غرور
هوا ينسى إنى مليكته ... وإنى نار ف الدنيا ونور
مين فى الوجود ينكر فضلى ... وإنى وحى لكل سرور
دا كل كوكب لما اطلع ... ما بيقالوش فى الدنيا ظهور
أنا اللى فضلى على الأجسام ... أوهب لها صحه وعافيه
حرارتى تفتك بالجراثيم ... حرارتى للأمراض شافيه
أنا اللى سر حيات الكون ... وحكمتى ماهش خافية
لولاى مين كان يتمتع ... بالزهر فى الروض والأثمار
لولاى مين كان راح يسمع ... طيور تغنى على الأشجار
لولاى ما كان يظهر لك ... يابدر ف الليل أبدا نور
نورك بتخده مّن نورى ... وبرضه فضلى عليك منكور

القمر:

ياشمس م المَنْ حاسبى ... المن يمحى كل ثواب
مش كفايه لفضلى إنى ... حجة الناس فى الحساب
مش كفايه لفضلى إنى ... أهم السارى الصواب
مش كفايه إن نورى ... دل عنك فى الغياب

الشمس :

إنت ليه يابدر تغضب ... كلنا صنع الإله

هو خلانى المليكة وأمره تسجد له الجباه
والحى يسعد فى حياته لو رضى بالى معاه.

النجوم:

إنت يا شمس المليكة وانت أفضالك كتير
كل واحد له مزايا من جمال باهر ونور
كل واحد منا فيه حكمه للمولى القدير
والأمور ف الكون بتجرى بحكمة تخفى على البصير
والإله الحق وحده ف إيده تصريف الأمور

القمر:

يا شمس نشكر رب الكون الى خلقنا احنا الاثنين
وجعلنا نافعين ليل ونهار وجعلنا فى الدنيا آيتين
سامحينى يا شمس وصافحينى وفضلك على رأسى والعين

القمر: لتحيا الشمس.

الشمس: لتحيا القمر وتحيا النجوم.

حديثى مع أطفالى

إذا أنتم يا أولادى لم تحافظوا على الصدق والأمانة فى جميع أعمالكم ضعتم وضاعت آمال البلاد فيكم، وليس أحب إلى الله سبحانه وتعالى

من الإنسان الأمين. لأن الأمانة عنوان الشرف، وأنتم كلكم تحبون أن تكونوا شرفاء.

الطفل الشريف والكنز المخيف

كان عادل ولدًا ظريفًا لما كان صغيرًا، وكانت أمه تحذره من الخيانة، وتحببه فى الصدق والأمانة، وتقول له: يا عادل إن أردت أن تعيش فى الدنيا سعيدًا فلا تكذب، وكن أمينا.

وهكذا لا تمر لحظة إلّا وتذكره بهذه الموعظة (الأمانة. الصدق. الشرف) ماتت أمه، ومات أبوه وكانا فقيرين ولم يتركا لعادل شيئًا أبدًا.

ماذا يصنع عادل المسكين؟

كان يسكن بجوار بيتهم رجل تاجر، وهذا التاجر قال لعادل: لا تحزن يا عادل، وتعال اشتغل بالبيع معى فى (الدكان). فقبل عادل، واشتغل بهمة. ونشاط وجد، واجتهاد، يقابل الناس بوجه صبوح باش، ويعامل الناس باللين والرفق والأدب والكمال، واستأجر لنفسه حجرة بسيطة، ووضع فيها سريرًا، واشترى بعض الأدوات، وكان يقتصد من أجره، ويضع ما يقتصده فى صندوق التوفير، استمر عادل على ذلك ثلاث سنين، وبعد ذلك أفلس التاجر الذى كان يشتغل معه، وأقفل الدكان.

مسكين عادل. ماذا يصنع. بحث كثيرًا عن عمل يشتغل فيه فلم يوفق، حتى نفد كل ما اقتصده، ولم يبق عنده شىء مطلقًا، وقد صدق المثل العامى:

(القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود)

ماذا يصنع عادل بعد أن انتهت نقوده. باع سريره (ومرتبته) وكان المسكين ينام على الحصير، ويضع يده تحت رأسه بدلا من الوسادة وأحيانًا كان يبيت من غير طعام، والجوع يكاد يقتله، فلا يمد يده لأحد يطلب شيئًا لأنه كان عزيز النفس شريفها.

وعزة النفس يا أطفالى وشرفها من الصفات الجميلة التى أحبكم أن تتصفوا بها.

* * *

كان ٢٨ فى الشهر، وصاحب البيت لابد وأنه سيطالب عادل بأجرة الحجرة التى يسكن فيها، وكان هذا الرجل شديدًا بخيلًا لا يعرف معنى الشفقة ولا الرحمة، وكثر تفكير عادل، وكثرت همومه، وأخيرًا فكر فى الانتحار.

الانتحار يا أطفالى هو قتل النفس. وقتل النفس حرام عند الله، ومن يقدم على قتل نفسه فإنما يغضب ربه، ولا يقتل نفسه إلا الجبناء، الأنذال. واليأس صفة من الصفات الذميمة فلا يجب أن تيأسوا أبدًا. ويجب أن تثابروا فى الحياة مهما وجدتم من الصعاب.

النملة وهى حشرة صغيرة، ترونها تحمل فوق طاقتها. ويقع الحمل على ظهرها مرة ومرتين، وفى كل مرة تجاهد، وتجاهد وتجاهد كثيرًا، حتى تعود إلى الحمل الثقيل، فإذا كانت النملة لا تعرف معنى اليأس والقنوط، وهى حشرة فهل يقنط الإنسان وهو العاقل الذى فضله الله على جميع المخلوقات، أنتم عقلاء يا أولادى فاسمعوا:

* * *

سار عادل نحو شاطىء النهر، ليلقى بنفسه فيه، ويتخلص من همومه وديونه، ولكن ضميره كان يوبخه ويقول له: أتقتل نفسك يا عادل !! وهى أمانة عندك، فكيف تفرط فى أمانة الله؟

ولكنه كان يجيب على صوت ضميره قائلاً: لا. لا الموت خير من الذل والهوان.

وقبل أن يقترب عادل من شاطىء النهر، وجد على ضوء مصباح الشارع شيئًا ملقى على الأرض، فاقترب من هذا الشيء وأخذه ونظر فيه فإذا بها (محفظة) نقود، فتحها فوجد فيها كثيرًا من الأوراق المالية ذات العشرة جنيهات، والخمسة جنيهات، وذات المائة جنيه، وذات الجنيه الواحد، ووجد بطاقة (كرتا) مكتوب عليها اسم صاحب المحفظة هكذا.

على ماجد باشا **Aly Magid Pasha**

القاهرة - ت **Cairo ٤٥٦٧٨**

ففرح عادل بهذه الثروة العظيمة وجلس يعد الجنيهات فإذا بها ٥٠٠ جنيه مصرى، وقال ثروة عظيمة أستطيع أن أعيش بها حياة سعيدة.

وأنشيء محلا تجاريا، وأسعد بهذا المال:

ولكنه سمع كأن شخصا يناديه ويقول له: (لا تكذب وكن أمينًا) (الأمانة. الصدق. الشرف) آه إنه ضميره يوبخه، ويذكره بكلمات أمه.

مسكين عادل اصفر وجهه، وقال: آه الأمانة. الصدق. الشرف. ارحمنى يارب. لا. لا. لا يجب أن أكون لصًا مجرمًا، لا يصح أن أكون رجلاً

خائنًا، لا يليق أن أكون شخصًا مذنبًا، لا أفرط فى نصيحة أمى، وصاح بأعلى صوته:

أمى. أمى. إن نصيحتك الغالية هى سعادتى فى هذه الدنيا الفانية، وأخذ محفظة المال، إلى مركز البوليس وقدم المحفظة للضابط بشهامة، وعزة نفس قائلاً: يا حضرة الضابط إنى وجدت هذه (المحفظة) ملقاة فى الطريق وفيها ٥٠٠ جنيه فأتشرف أن أقدمها لك، لتردها لصاحبها.

وكان عادل يلبس ملابس ممزقة رثة، فدهش الضابط من أمانة هذا الشاب، وفى الحال استدعى على ماجد باشا بالتليفون فحضر إلى مقر البوليس وأخبره الضابط عن قصة عادل، وسلمه (المحفظة).

فدهش الضابط من أمانة الشاب. وسأله عن عمله فقال أنا عاطل يا سيدى لا عمل لى، وكانت دهشته أعظم لما سمع بأن لا عمل لعادل، وكان فى استطاعته أن يسرق المحفظة ولا يردها للضابط.

ولكن الباشا قال لعادل: اسمع يا ولدى: اسمع يا ولدى خذ هذه المحفظة بما فيها من النقود حلالاً لك، وتعال معى لأنى سأعينك فى وظيفة تليق بك فى دائرتى، فإن عملى يحتاج إلى رجل أمين مثلك.

عاشت الأمانة، وعاش الأمناء. وعاش عادل مع الباشا عيش السعادة والهناء؛ وذلك بسبب أمانته واستماعه لنصيحة أمه.

الإذاعة المدرسية

وقد أبدت «وزارة المعارف» اهتمامًا واضحًا بالإذاعة كوسيلة تعليمية، فحاولت أن تجهز بعض مدارسها الكبرى بجهاز راديو، ومن خلاله كان

التلاميذ يستمعون إلى بعض المواد ذات الأهمية الخاصة، مثل خطب العرش.. كما كان عدد من رجال التعليم يلقون من الراديو «محاضرات» بعضها من صلب المنهج الدراسى، والبعض الآخر يستهدف الثقافة العامة للأجيال الناشئة.. وكانت بعض المدارس مجهزة بسماعات داخل حجرات الدراسة، وهناك برامج صباحية يستمع إليها التلاميذ، وهم جلوس فى مقاعدهم مع أساتذة المواد التى تحاول الإذاعة أن تقربها إلى مفاهيمهم..

كان هذا هو كل ما يجرى فى مجال إذاعات الأطفال فى العقد الأول لإنشاء «الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية» والتى كانت تمتلكها «شركة ماركونى».. أناشيد وأغانى وحكايات توجيهية فى ركن الطفل، ومحاضرات وخطب فى برامج الإذاعات المدرسية.. وانتهى هذا العقد (١٩٣٤ - ١٩٤٤) مصادفة على يد «المذيع» الذى كان مسئولاً من قبل الإذاعة عن هذه البرامج، وكان يحضر فى الأستديو مع مقدميها، يتابعهم ويعاونهم، دون أن يشارك مشاركة إيجابية، ودون أن يخطر بباله أن هذه اللحظات التى يقضيها معهم سوف ترسم له طريقًا، يمضى فيه على مدى العمر - أطاله الله ومتع صاحبه بالصحة والعافية.

قصة البداية:

وقد روى ذلك المذيع - الأستاذ محمد محمود شعبان - كثيرًا قصة بداية عمله مع برامج الأطفال، وأجاب فى عديد من المناسبات عن سر هذا الاسم الطريف «بابا شارو» الذى اختاره لنفسه، وتردد آلاف المرات من خلال الميكرفون حتى عرفته كل مصر، وسمعته أجيال

متعاقبة، وكان الآباء كثيرًا ما يستمعون إلى البرامج مع أبنائهم، بل بعضهم كان يمضى إلى الإذاعة قائلاً:

- عاوز «أدخل» ابنى فى «بابا شارو»!

وكان المسئولون فى الإذاعة يتساءلون عن معنى هذا الطلب، فإن «بابا شارو» لم يكن دارًا لرياض الأطفال، ولا هو مدرسة، ولا هو «نادى» لكى يدخله الأطفال، إلا أن الآباء استشعروا ارتباط أبنائهم كمستمعين بهذا البرنامج: فيه يستمعون إلى أسماء «أصدقاء بابا شارو»، تلك الصداقة المعنوية الكبيرة التى ربطته بملايين الأطفال، وجعلتهم يرتعدون فرقًا ورعبًا وخوفًا إذا ما غضب عليهم الآباء وقالوا:

- هنبعت نشتكيك فى «بابا شارو»!

وكانت عبارة أنهم لن يصبحوا أصدقاء لبابا شارو تفزعهم إلى درجة إعادتهم إلى «الطريق السوى وسماع كلام الآباء».. وكانت المواد التى تقدم من خلال البرنامج تجتذب الصغار إلى ذلك الصندوق السحرى فيلتفون حوله وكلهم آذان صاغية.. وأشهد أن بعضهم كان يبكى إذا انتهى البرنامج، لأنهم أى الصغار - كانوا يستمتعون بما يذاع الاستمتاع الذى يفوق حد التصور، وكانوا يظنون أن فى مقدور دموعهم أن تمد فى أجل البرنامج أكثر من النصف ساعة المخصصة له فيما بعد ظهر يومى الأحد والثلاثاء، وفى صباح الجمعة.. وقد استمر ذلك ما يزيد على خمس عشرة سنة متوالية، تحمل فيها الرجل مسئولية البرنامج من ألفه إلى يائه، وكان معاونوه فيه يتعلمون منه أكثر مما يساعدون، ويعينون على التقديم واختيار المواد المذاعة.

وأشعر بأسى وأسف عميقين، لأننى لم أكن من مستمعى هذا البرنامج فى الأربعينات، فما كنا نتملك جهاز راديو، كما أننى كنت قد بدأت أتجاوز مرحلة الطفولة، ولكننى لحقت بهذه البرامج مع بداية الخمسينات - بالمصادفة المحضة، وكان هو الذى اجتذبنى إلى مجال الكتابة للأطفال، وجعلنى أمارسها على مدى يصل إلى ثلث قرن من الزمان.. ولم أعرف الكثير عن تاريخ البرنامج، فإن «بابا شارو» صموت، قليل الكلام، ولم يحدثنى طويلاً عن الأربعينات، وكان يلخص تجربته فى أنه كان يعمل بوحى من نفسه، يخطئ ويصيب، لكن ما حققه من نجاح أكد أنه يحمل بين جنبيه كل مواصفات مقدم برامج الأطفال الناجح، من حب لهم، ومن موهبة حبتها إياه السماء، ومن قدرة غير عادية على الحكم على المواد من حيث مناسبتها للطفل، وللإذاعة معًا، ثم إنه كان يمتلك القدرة على التبسيط وعلى مخاطبة الأطفال بصوته، الذى كان يقدم به - فى نفس الوقت - نشرات الأخبار..

حكاية التلمذة الحرفية:

ومن مواصفات صاحب برامج الأطفال الناجح أنه يحب «النمو».. هو يرى أن «النمو» فضيلة.. وهو يطلبه ويلح عليه بالنسبة للأطفال، ثم بالنسبة لمن يرغبون فى مشاركته فى هذا العمل، لذلك كان تشجيعه لمن يأنس فيه الموهبة كبيرًا، لكنه كان حادًّا حازمًا فيما يتعلق بمن يجدهم غير صالحين لهذا العمل، وكان ينصحهم فى صراحة موجعة بالبحث عن مجال آخر.. وسوف أروى حكاية التلمذة الحرفية، و«المدرسة» التى أنشأها بابا شارو، ومن خلالها - فيما أرى - ازدهر حقل العمل للأطفال فى بلادنا

بالكثيرين ممن أعطوا هذا المجال بلا حدود، ولعلى - شخصيًّا - نموذج للملتحقين بهذه المدرسة، لذلك أروى قصتى معه فى تركيز شديد..

تعرفت وأنا أدرس لماجستير العلوم السياسية على زميل يسبقنى فى العمر كثيرًا، عاد لمقاعد الدرس معى فى السنة التى تخرجت فيها، وجعلنى أزوره فى مكتبه بالإذاعة، وسألنى أن أجرب الكتابة لها، وأعطانى تمثيلية من تأليفه.. إنه المرحوم صالح جودت.. وقلدته.. كتبت عملاً عن لعب الأطفال الحربية، ورأيت أن فيها تحبيب لهم على ممارسة القتال، وكانت الدعوة للسلام حارة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.. قرأ صالح جودت عملى وقال:

- نجرب نديه لبابا شارو..

وتعرفت عليه.. قرأ العمل ورفضه.. إنه عن الأطفال، وليس لهم.. لكن الحوار أعجبه، وقال إنه يمكن أن يكون صاحبه كاتبًا إذاعيا، وسألنى أن أحاول مرة أخرى.. وحاولت.. وإذا به يستكتبنى العمل خمس مرات فى مدة تقترب من العام، وقد سألنى خلال ذلك:

- هل أنت صبور؟

وبعد إعادتى لكتابة التمثيلية للمرة الخامسة، رأى أن الرابعة أفضل.. وأشركنى فى التمثيل فيها، وإن كان قد نصحنى بعدها ألا أحاول مرة أخرى دخول الاستديو «ممثلا»، واستجبت!.. ومع هذه التمثيلية تعرفت إلى زملاء لى تلاميذ فى مدرسة بابا شارو: السيدة سيمحة عبد الرحمن، الأستاذ حسين فياض، الأستاذ فؤاد المهندس، وآخرين.. وكان العمل عن «بحار»، ورأيت لأول مرة كيف يبتكرون المؤثرات الصوتية، إذ كان

هناك طفل يلقى بنفسه فى الماء ليسبح، وإذا بى أرى دلوًا وقالب طوب، وكم تناثر الماء فى جنبات الاستديو لنخرج جميعًا وقد ابتلت ثيابنا.. عموما، كانت التجربة بالنسبة لى مثيرة، فى جانبها: الكتابة والتنفيذ.. وكم كانت مفيدة أيضًا أن أرى مراحل العمل خطوة بخطوة.. واستمعت أسرتى للعمل عند الجيران، فما كنا حتى ذلك الحين نمتلك جهاز راديو..

وطلب إلى «بابا شارو» أن أكتب عملاً ثانيًا.. قدمت إليه «الفلوس فى الحصالة»: ريال وعشرة صاغ وشلن وتعريفة ومليم، اجتمعوا فى حصالة، وأغراهم الشلن بالخروج منها، لقوا متاعب كثيرة، وعادوا إلى مكانهم قبل الفجر، لكن «الشلن» كان مزيّفًا وطرد (ولا يفوتنى أن أقول إن الإنجليز كانوا فى ذلك الحين يحتلون بلادنا).. وعندما ذهبت بأقدام مترددة إلى بابا شارو أسأله رأيه فى هذه التمثيلية بعد أن تركتها له نحو شهر، أخذنى بيده وقام من مكتبه، وأنا لا أعرف إلى أين يمضى بى، إلى أن دخل مكتب صالح جودت، وقال:

- أشكرك على أنك عرفتنى بهذا الشاب.. أستطيع أن أقول: إنه سوف يكون كاتبًا للأطفال.

وأذاع «الفلوس فى الحصالة» دون أن أعيد كتابتها، بل إنه لم يغير منها كلمة واحدة، إذ كان النص الذى يقدمه الكاتب «مقدسا» عنده، لا يرفع كلمة، ولا يضيف أخرى إلا بعد مناقشة المؤلف.. وبعد سنوات كان يحلل لطلاب معهد الإذاعة كيف أننى فى هذه التمثيلية قد استطعت أن أضع شخصيات متميزة صوتيًا: الريال - حسين فياض - رجل عريض الصوت، تأتى بعده العشرة صاغ - رفيعة الشال - سيدة

ناضجة.. ثم الشلن - فؤاد المهندس - شاب.. والتعريفة - نوال الجمل - فتاة صغيرة.. ثم المليم ومثله ولد صغير جدا.. شخصيات واضحة المعالم، ما إن ينطق صاحبها حتى يتعرف عليه المستمع..

وتوالت أعمالى الإذاعية لأطفال بابا شارو طيلة عمله فى البرنامج.. ولم ألتق به خارج مبنى الإذاعة مرة واحدة خلال هذه الفترة!

..

التلاميذ الذين أصبحوا أساتذة!

إن ما صنعه بابا شارو من وراء الميكرفون - فى مجال الطفل - يجعل منه رائدًا بكل المقاييس، وقد تخرج فى هذه المدرسة كثيرون عملوا للأطفال فى كل مجال.. وسوف تكون بعض الأسماء التى أوردها نماذج - فحسب - إذ أن العشرات - بل المئات - استفادوا من عملهم مع بابا شارو، وبعضهم تعلم منه أن يعد صفًّ ثانيًا يعمل من بعده.. وقد تناثر هؤلاء فى جبهات طويلة، ولم تقف جهودهم على الإذاعة.. إذ من خلالها خرج من عمل للتليفزيون.. ثم من خلالها عمل مؤلفون وكتّاب، وأيضا موسيقيون وملحنون، ثم هناك مغنون ومطربون، ولا ننسى الذين قاموا بالتمثيل للطفل فى الإذاعة والتليفزيون، والمسرح والسينما.. كما امتد نشاط المؤلفين إلى مجال المجلات والكتب، ومن هنا نرى أن بابا شارو كان «شجرة» اخضرت، وامتدت فروعها هنا وهناك، ومن فوقها نبتت زهور لمعت أسماؤها فى كل الحقول التى أشرنا إليها.. إن فضله فى لفت الأنظار للأطفال أمر لا ينكر، ولا ينسى، فقد اجتذب كثيرين لهذا العمل، كما اجتذب المستمعين الصغار وأهلهم لمتابعة برامجه، بل إن بعض

أغانيه ما زالت تتردد حتى الآن، وفى أعياد الميلاد مازلنا نسمع ونردد ضاحكين..

- يالله حالا بالا هنوا أبو الفصاد

حيث عيد ميلاده الليلة أجمل الأعياد!

بل إننى حين أردد بعض أغانيه على طلاب، وطالبات الجامعات ممن يدرسون أدب الأطفال، وهم دون العشرين عمرًا، وكثيرون منهم لم يلحقوا بابا شارو، إلا أنهم يكملون معى مقاطع أغنياته.. أقول..

- يا عسكرى يا أبو بندقية

يضيفون: يا زينة الأم المصرية..

أقول: هل تعلمون تحيتى..

يقولون: عند الحضور إليكم!

أقول: كان فيه واحدة ست..

يرددون: عندها اتناشر بنت!

والسؤال: كيف عاشت هذه الأغنيات وتلك الأعمال مع جيل لم يسمعها من خلال الإذاعة إلا قليلًا، أو لم يستمع إليها على الإطلاق؟!..

الجواب: أنها أصبحت «كلاسيكيات» يمكن أن تتوارثها الأجيال ولو أن أحدًا تنبه إلى طبعها على شرائط لرجت فى الأسواق، ولقيت القبول من أطفال جيل التليفزيون والصواريخ.. فإنها من لون يعيش، ولا يبلى، ولا يموت، لأنه يخاطب كل الأطفال فى كل العصور، لأنه يناسبهم ويتفق مع ميولهم ورغباتهم..

لقد كان «بابا شارو» مايسترو انتزع ممن عملوا فى فرقته أعذب

ما لديهم من أنغام، من منطلق التشجيع أولاً للمجيدين، والحزم الشديد مع النفس قبل أن يكون مع الآخرين من تلاميذه..

* إن «ماما سميحة» أو السيدة سميحة عبد الرحمن - التى وصلت إلى منصبٍ مرموقٍ فى التليفزيون كانت ممن تعلموا وتدربوا فى مجال الأطفال على يد بابا شارو.. ولكن نشاطها الإذاعى اقتصر بعد ذلك على إذاعة الإسكندرية المحلية، وظلت تقدم من خلالها برامج الأطفال لسنوات طويلة، قبل أن تتحمل مسئولية برامج الأطفال فى التليفزيون.. وكانت تبذل جهودًا فوق الطاقة، حتى إنها كانت تقدم بنفسها البرامج على مدى أيام الأسبوع السبعة!..

وقد ألفت للأطفال مسلسلات تليفزيونية، كما ترجمت لهم قصة «جيمس بارى» الشهيرة «بيتزيان»..

* أما «أبلة فضيلة» فقد كانت خير خلف لخير سلف: إذاعيًا، وقد بدأت مع «بابا شارو» وما زالت تقدم برامج الأطفال بشكل يدعو للإعجاب، وما زال لديها رصيدٌ كبير من المستمعين رغم التليفزيون.. وبرنامجها - غنوة وحدوتة - لسن ما قبل السادسة من أحب البرامج للأطفال، كما أن «حديث الأطفال» يوم الجمعة يلقى إقبالاً كبيرًا.. وكانت من أوائل من قدموا مسلسلات إذاعية للأطفال، وكتبت وقدمت وأخرجت مئات - وربما ألوف البرامج الإذاعية، وما زالت - رغم منصبها الكبير فى الإذاعة - ملتصقة ببرامج الأطفال متمسكة بعملها هذا فى حب شديد.

وإذا كنت قد اكتفيت فى مجال برامج الإذاعة والتليفزيون بذكر اسم ماما سميحة، وأبلة فضيلة إلا أننى أعتقد عن يقين أن جميع العاملين فى

هذه البرامج تتلمذوا عليها، وكما قلت تفرعت أغصان الشجرة وامتدت ظلالها هنا وهناك.. ولسنا فقط بصدد العاملين مباشرة فى هذه البرامج، بل والمتعاملين معها من كتاب وملحنين وممثلين.. ونـذكر فى مجـال الكتابـة للإذاعة جمال أبو رية، ونادر أبو الفتوح، ومن مؤلفى الأغانى: إبراهيم رجب.

ومن الملحنين أحمد خيرت وعطيات عبد الخالق، ومن العازفين بلقيس أمين، ومن الفنانين: سعاد حسنى، وصفاء أبو السعود، بل إن الكثيرات والكثيرين ممن لم يعملوا مع بابا شارو، أو فى برامج الأطفال أصبحوا يدعون أن هذه البرامج كانت بداية الطريق بالنسبة لهم..

* وأذكر «حسين فياض» مؤلفًا من الأربعينات وممثلًا.. كتب عشرات الحلقات من كليلة ودمنة، وقام بأداء أدوار متميزة فيها، وفى مئات الأعمال الإذاعية التى قدمها بابا شارو، وكان مع إبراهيم حكلا يؤديان الكثير، بل ويقومان بالعديد من المؤثرات الصوتية.. وشارك حسين فياض بعد ذلك فى إنشاء مسرح الأطفال بالإسكندرية، ثم بالقاهرة فى منتصف الستينات، وقدم أعمالًا طيبة.. وهو يشعر دائمًا أن بابا شارو كان وراء نجاحه فى عمله للأطفال.

* ولا يفوتنى ذكر «عبد المنعم مدبولى» كاتبًا للأطفـال وممثلًا. ولعـل البعض يدهش لدى معرفة أن «مدبولى» كتب للأطفال، والحقيقـة أنه صاحب أكثر من عمل من أشهر الأعمال الدرامية فى برامج بابا شارو للأطفال، وبالتحديد صاحب «تنابلة الصبيان» التى لقيت من الأطفال إعجابًا يفوق الحد.. إلى جانب أعمال أخرى شارك فيها بالتمثيل قبل

أن يتجه إلى المسرح.. كما لا يفوتنى أسماء «إبراهيم رجب» و«عزت السيد إبراهيم» وآخرين.

القائمة طويلة، والأغصان تفرعت، ولابد هنا من أن أذكر أن بابا شارو، حين أخذ بيدى لقننى درسًا لا ينسى، ألا، وهو أن أقتدى به فى هذا المجال.. فكان أن أعنت كثيرين فى بداية طريقهم، وعلى رأسهم بالطبع ماما لبنى، التى كانت تتوق فى طفولتها للكتابة للأطفال، وجربت قلمها إذاعيًا قبل أن نلتقى، ثم رسخت أقدامها على الطريق فى مجال صحافة الأطفال ومجلاتهم باحثة ودارسة، وأيضا سكرتيرة للتحرير، فمديرة للتحرير، ورئيسة للتحرير على مدى يزيد على ربع قرن، استطاعت خلالها مجلة سمير أن تقدم عشرات الأسماء من الكتّاب، والمؤلفين، والرسامين، والفنانين العاملين فى مجال الأطفال.. إنها، وكل الجيل الذى عمل معها، مدينون للرائد بابا شارو بالكثير.. وفضله على الكلمة المطبوعة بمجلته بابا شارو لا ينسى، كما أنه ولسنوات طويلة شارك فى تحرير سيناريو للأطفال، كانت تنشره جريدة الأخبار بشكل منتظم، كما أشرف على ركن للأطفال أسبوعى فى الجريدة، أى أنه ساهم بقلمه فى العمل الصحفى للأطفال..

واعتزازًا منى بالعمل مع هذا الرائد أذكر بعضًا من الأعمال التى كتبتها فى وقت مبكر، وكان صداها عنده وعند الأطفال طيبًا.. إننا قبل أن نعرف المسلسلات للكبار فى الإذاعة أعددت له قصة (أليس فى بلاد العجائب) فى أربع حلقات فى بداية الخمسينات، كما قدمت له ثلاث حلقات عن تضامن آسيا، وأفريقيا أيام باندونج، وحين كان الإنجليز

يحتلون بلادنا قدمنا (عش العصافير) رمزًا لمصر، وروينا محاولات للغربان لكى تستولى عليه، لكن العصافير استطاعت أن تجليهم عن عشها.

.. ولا أنسى (القلل القناوى) التى ألفتها حين اجتاحت السيول مدينة قنا، وروينا كيف أن بخيلًا كان يخفى ماله فى (قلة) وكانت تريد أن تغيث أهلها، فحملت إليهم مالها!!.. ولكم أشعر بالأسى لأن هذه الأعمال قد ضاعت أوراقا وتسجيلات، ولكننا ما كنا ندرى يومها أن ما نقوم به قد يكون (تراثًا).. إنه كان عملًا مخلصًا لوجه الله والوطن، ينتهى بوصوله إلى الأطفال، محدثًا فيهم من التغيير ما نريده لهم، وما نستهدفه بالكلمة الشريفة من مساعدة للآباء والمعلمين لتربية الأجيال الجديدة على قيمنا الدينية، والقومية، والأخلاقية..

ماذا قدمت الإذاعة للأطفال بعد «بابا شارو»؟

إن الرائد يرصف الطريق، ويأتى مَن بعده ليجده إلى حد كبير معبدًا، ليس من الصعوبة أن يمضى عليه قدمًا، مقلدًا حينًا، مطورًا عمله حينًا آخر، مبدعًا خلاقًا إذا ما كان موهوبًا..

* وقد بدأت أبلة فضيلة (توفيق) عملها، لا من فراغ، بل كان بابا شارو قد وضع الأساس، وراحت تبنى من فوقه، ليبدو البناء فى كامل رونقه، لولا قيام التليفزيون فى نفس الفترة، ومع ذلك نجحت إلى حد كبير فى الاحتفاظ بنسبة كبيرة من مستمعى البرامج، وقد وضح ذلك جليًا من تجاوب الأطفال معها ومتابعتهم لها، وليس أدل على ذلك من بريدها

الذى أولته العناية والاهتمام، فما من رسالة تصلها إلا وترد عليها، إما من خلال الميكرفون، وإما برسالة شخصية.. وجددت فضيلة فى برامجها كثيرًا، فقدمت مجلة للأطفال، صدرت منذ بدأت عملها للأطفال، وما زالت تصدر شهريًا - تقريبًا - وفى المناسبات العامة أو الخاصة بالأطفال.. كما أنها قدمت برنامج (مستقبلى) الذى استضافت فيه نجومًا من شتى مجالات العمل، مهمتهم، تنوير الأطفال، وشرح المهن لهم، ليختاروا من بينها ما يتفق مع مواهبهم وميولهم.. كما قدمت مسابقات بعنوان (مين أشطر؟) يتبارى فيها الأولاد مع البنات فى المعلومات العامة الطريفة.. إن عشرات الإطارات قد ابتكرت من أجل مزيد من الجاذبية للمستمع الصغير، وندرت عملية إذاعة أسماء الأصدقاء، وزادت نسبة المواد الثقافية والدينية.. كما أن الاهتمام بطفل ما قبل المدرسة قد أصبح من الأمور الهامة والحيوية، لذلك يقدم له برنامج «غنوة وحدوتة» الصباحى، يوميًا..

* وتأتى بعد ذلك جهود «عمو حسن» (شمس) فى إذاعة الشرق الأوسط، وهو يبدى اهتمامًا بالمعرفة والمعلومة، يحاول إيصالها للأطفال بشكل طريف وجذاب.. وقد قدم على مدى عام كامل، برنامجا عن محافظات مصر: تاريخيًا، وجغرافيًا، وعرض للشخصيات التى أنجبتها كل محافظة.. كما قدم عرضًا لماضى مصر منذ عهد الفراعنة إلى يومنا الحاضر فى حلقات.. ومن البرامج التى تستدعى الالتفات، تلك النافذة التى فتحها على الآداب العالمية للأطفال، لكى يتذوقها أبناؤها فلا يتخلفون عما يستمتع به أطفال البلدان المتقدمة.. وفى معرض الكتاب اختار للأطفال موضوعًا شيقًا هو القراءة، وماذا يقرأ الطفل وكيف ومتى،

وجعلها فى صورة مسابقة، جوائزها كتب من هيئة الكتاب.. وهو يتجول بين المجلات العربية الصادرة للأطفال مرة كل أسبوع ويقدم أوبريتات، وبرامج موسيقية، ولا تفوته مناسبة من المناسبات القومية، أو الوطنية، أو الاجتماعية. إلا ويسهم فيها، ويجدها فرصة ليحدث الأطفال عنها بشكل مبسط..

* وفى صوت العرب برنامج أسبوعى، بعنوان «العربى الصغير» مدته ربع ساعة، تقدمه السيدة سوسن النمرسى.. ورغم هذا الكم المتواضع، واختيار وقت غير مناسب للبرنامج إلا أن مقدمته تحاول جاهدة أن تجد مادة عربية لبرنامج، وما أغزر المواد الصالحة فى هذا المجال.

* و«المحليات» لها برامج عدة للأطفال، تصل فى أغلب الأحيان إلى خمس برامج أسبوعيا، كل منها فى ربع ساعة.. وتقدمها السيدة سوسن الجمل.. وتهتم بالبرامج الدينية وتحاول أن تصل ببرنامجها إلى طفل الريف، وإلى أبناء الشعب البسطاء.

وفى مناسبات خاصة تزداد المساحة الممنوحة لبرامج الأطفال، مثل أعياد الطفولة، وتتحمس كافة الشبكات، وتقدم للكبار برامج عن الطفولة، وندوات، وسهرات، لكن هذه الحماسة لا تستمر طويلاً..

والحق أن برامج الأطفال فى الإذاعة، قد تفرعت وازدهرت من أصل واحد، هو برنامج «بابا شارو».. إنه الأصل والأساس.

بيكار..
القلم، النغم، والفرشاة!

«إن كل ما فعلته إنما هو سداد لبعض الدين الذى أشعر بفداحته: نحو مصر، ونحو أطفال مصر، وطفولة أشعر بمدى افتقارها إلى أهم مقومات تكوينها وتنشئتها.. لقد عرفت فى طفولتى معنى الحرمان، وذقت قسوة الظمأ عندما كان المناخ حولى خاويًا وجدبًا جدب الصحراء، ينتظر قطرة ماء تروى خيالنا الطفولى المتعطش، المتفتح للمعرفة، فلا نجد إلا ما يزيدنا ظمأ».

حسين بيكار

من رسالة خاصة فى ١٩٨١/١١/٥

قبل البداية

لقد قلتها ذات مساء، على الهواء، ونشرتها فى مجلة عربية أسبوعية:

– إننى سعيد لأننى عشت «عصر بيكنر»!

وما كنت مبالغًا، ولا مجاملًا، كما تصور هو، إذ لم يسعدنى الحظ بصلة مباشرة معه، بل لم أجد الفرصة لجلسة إليه، وكل ما أتيح لى هو التلقى عنه من خلال رسومه، وكتاباته، والقليل من موسيقاه، غير أن ما وصلنى منه تخللنى، وامتزج بوجدانى، وأصبح جزءا لا يتجزأ من مكوناتى، ومن هنا كان تقديرى له، وانفعالى به، على البعد.. وحديثى هنا عن بيكار: القلم والنغم، والفرشاة، محاولة متواضعة من جانبى لسداد جزء من جميل عام، وفضل شامل أداه هذا الفنان باقتدار، وكان نصيبى منه كبيرًا، لسبب بسيط، هو أن رسائله الأثيرية وجدت لدى جهاز استقبال، مفتوح العينين والأذنين والقلب والعقل.. لا أكثر ولا أقل!.. وحماستى له – يعلم الله – أنها بلا غرض خاص أسعى له. اللهم إلا التعبير عن الملايين الذين استمتعوا بفن بيكار، وبالذات هؤلاء الذين منحتهم عمرى، وأعنى بهم الأطفال، وكلماته عنهم وعن طفولته تكفينى.. وليغفر لى السادة الدارسون، والباحثون، والنقاد، إذا لم يجدوا فى حديثى عن بيكار غير الإيجابيات، فمعذرة إذ لست أرى غيرها، ولهم أن يبحثوا هم عن سواها...

فنان شامل

* «العزف بالألوان»
* «صور ناطقة»
* «رسم بالكلمات»

من يتملى هذه العبارات، لابد أن يتوقف عندها طويلاً، فقد نحتت من جرانيت اللغة بفن وبراعة، وقد اختارها بيكار عناوين: الأول عنوان لفيلم تسجيلى، نال جائزة عن موسيقاه التصويرية، والثانى والثالث عنوانان لكتابين له.. والعبارات تمزج بين فنون: الموسيقى والأدب مع الرسم والتصوير، وكلها تعبر عن فلسفته فى الفن، وهو يقول:

«الفن مثل حجرة لها نوافذ مختلفة، وكل نافذة تطل على وسيلة للتعبير، لكن الجوهر واحد، فالفن وحدة لا تتجزأ بتنوع وسائل التعبير».

إنه يرى أن الموسيقى تصوير يخاطب السمع، والتصوير هو موسيقى تخاطب العين، والأدب رسم بالكلمات وبالموسيقى أيضا، ويخاطب العقل والقلب معًا.. إن الموسيقى والفن التشكيلى والأدب برأيه - فيها نفس الصفات من «تكوين وهارمونى وإيقاع».

والسؤال الذى يطرح نفسه: كيف يعايش الرجل كل هذه الفنون؟!.. وفى محاولة للإجابة يقول:

- «أنا أحس بالتمزق بسبب التنوع والتشتت الفنى الذى أعيشه، ودائمًا

أقول لنفسى: إننى لو كنت قد ركزت على لون واحد من ألوان الفن لكانت إجادتى له أفضل.. لكن الطموح، أو الطمع، أو أنانية الفنان جعلتنى أسير فى اتجاهات متعددة.. لقد كنت مثل من يجد نفسه وسط الطبيعة، والجمال يحيط: من كل جانب، وعليه أن يختار: إما أن يمشى فى اتجاه واحد ويستكشف ما فيه من جمال، أو يمشى فى عدة اتجاهات ليستكشف أكبر قدر من الجمال.. أمران لكل منهما ميزة وعيب.. لهذا أشعر أحيانًا بالندم، وأشعر أحيانًا بالرضا، وأحس دائمًا بالتمزق.. إلا أنه تمزق جميل، لأنه يرتبط بعالم الفن.. والفن جمال.. لهذا يتغلب إحساسى بالرضا على المشاعر المتناقضة التى تنتابنى، أو ربما يرجع السبب فى ذلك إلى أننى إنسان قدرى، ورغم إيمانى بالإرادة الفردية إلا أن إيمانى أقوى بالإرادة الكلية: إرادة الله.. وحين أسترجع تاريخ حياتى لا أجد لى إرادة فى شىء فعلته، وأسأل نفسى: هل أنا مجرد ترس فى آلة كبيرة؟، وتكون الإجابة: نعم، لكن.. هل عندما أرسم لوحة، أختار بإرادتى أن يكون الأصفر هنا، والأخضر هناك؟ أم أن اللوحة هى التى تملى علىّ ذلك؟!.. وتكون الإجابة: لا أنا، ولا اللوحة لنا دخل فى ذلك، وكل ما يحدث يجب أن يحدث لكى تكتمل اللوحة، لأن كلينا أنا واللوحة لسنا سوى لمسة فى لوحة كبيرة من صنع الله، لهذا عوّدت نفسى أن أسأل دون أن أنتظر الإجابة، وأن أعيش الحياة كعلامة استفهام..»

ومن الواضح أن «علامة الاستفهام» تلعب دورًا كبيرًا فى حياة بيكار، ولابد وأن يعبر عن هذا بقلمه وفرشاته .وفى كتابه «صور ناطقة» نجد هذه المقطوعة، وهذا الرسم...

التصوير والأدب:

إن التصوير والأدب مرتبطان اليوم أشد الارتباط، وذلك كما كانا على الدوام، باعتبارهما مظهرين هامين لوظيفة اجتماعية واحدة.. وقد يكون ترابطهما خافيًا عن العيان، لظروف تجعل من الصعب تبين هذا الترابط، وقد كانت السريالية - كما يقول د. نعيم عطية فى كتابه الفن الحديث: محاولة للفهم - من اللحظات المجيدة التى أدركت فيها العلاقة الحميمة بين التصوير والأدب.. ولكنها لم تكن اللحظة الوحيدة فى تاريخ الفن والأدب، فقد كان العناق بينهما قويًا أيام الكلاسيكية، ومن بعدها الرومانسية، فالرمزية، فالانطباعية والتعبيرية، بل وأيضًا إبان الحركة التجريدية، وقد وجدت التجريدية صداها فى بعض الكتابات الأدبية، كما وجدت صداها فى أعمال التصوير الحديث، وظهر التيار التجريدى فى الأدب كما ظهر فى التصوير، وإن كانت مهمة الأديب التجريدى أسعد من مهنة زميله المصور التجريدى، لاعتبارات تتعلق بالأداة التى يستخدمها الأديب.. ومن الأدباء من تجد عنده حسا تشكيليًا واضحًا، حتى لتكاد تشعر بأنه إنما يصور بكلماته لوحة غنية بالخطوط والألوان، وقد قامت مدرسة بأكملها فى فن الرواية على أساس من الصور المرئية، وتوصيل الأفكار والعواطف للقارئ عن طريق ما يبدو للعيان من المظهر الخارجى للأشياء، ولذا سميت هذه الحركة الروائية بالمدرسة الشيئية..

وتضيف إلى هذا أننا نجد من التشكيليين من عنده ذلك الحس الأدبى البارز، حتى لتكاد تلمح إلى جانب القيمة التشكيلية مضمونًا فكريًا

وأدبيًّا، وهو بذلك يعكس مقدرة فنية أكثر صعوبة، وقدرًا أكبر من التمكن.. ويرى بيكار فى ضوء هذه احقيقة عظمة الأعمال الكلاسيكية الخالدة، والتى اختلطت فيها الأدبيات بالتشكيل والتركيب المحكم، وهو يرى أن التزاوج والمعايشة بين المضمون الأدبى والشكلى ممكنة التحقيق، ولا تقلل من قيمة العمل الفنى على الإطلاق.. لهذا تراه يقرن رسومه بكتاباته، ويجمع كتاباته برسومه، مكونًا منها ضفيرة، لكى يؤثرا معًا فى التلقى، وينقلا إليه وجهة النظر كاملة بالقلم والفرشاة.. وإذا ما كان هذا صالحًا بالنسبة للكبار، فما لا شك فيه أنه أكثر صلاحية للأطفال، فنحن نعرف مدى إقبالهم على الرسوم، وتجاوبهم معها، إذ هى عامل جذب بالغ الأهمية، وإذا ما أضيف للرسوم عنصر الكلمات واتحدتا فى عمل فنى، وصل بدون شك إلى عقل المتلقى ووجدانه، سواء كان كبيرًا أو طفلاً.. وللفنان بيكار أعمال، قصد بها الكبار إلا أنها من الممكن أن تكون مثار إعجاب كبير من جانب الأطفال، وقد حدث هذا مع العديد من الأعمال الأدبية مثل جاليفر وروبنسون، كروزو وحول العالم فى ٨٠ يومًا، وحول العالم فى٢٠٠يوم.. إنها أعمال لم يخطر ببال مؤلفيها أن يتجهوا بها للصغار، بل إن بعضها يقوم على فلسفة عميقة، ويحتوى على مضمون يصعب إدراكه، ومع ذلك فقد فتنت هذه الأعمال الأطفال فى جميع أنحاء العالم، وكان هذا مفاجأة كبيرة للكتاب أنفسهم..

ويبدع بيكار كتابات ورسومات يعبر بها عن مواقف فى الحياة، وهو يتجه بها أصلاً إلى الكبار، لكن الذى يحدث أنها تلقى اهتمام الأطفال. ورأيت كثيرين منهم يتابعونها قراءة ومشاهدة، وبعضها أجراه بيكار فى دنيا الحيوان، شأنه فى ذلك شأن أيسوب، وبيرو، ولافونتين، وابن المقفع.

وأحمد شوقى، وكانت الاستجابة لهذه الكتابات والرسوم من أعمار متفاوتة دلالة على أصالتها وروعتها، ويمكننا أن نورد أمثلة كثيرة من هذ اللون، لكننا نكتفى بثلاث حكايات ورسومها، كمثل على عمل أرضى وأمتع العديد من الناس..

* الأولى باسم «اخلاقيات» يحذر فيها من خطورة تقليد المشاهد الاجرامية فى الأفلام.

* والثانية تتحدث عن «الطبع» وكيف أنه غلاب، وذلك من خلال ذئب تجرى عدة محاولات لاستئناسه..

وهذان العملان من كتابه «صور ناطقة»..

* والعمل الثالث من «رسم بالكلمات» وفيه يدور حوار ما بين طائرين: نعامة وحمامة.. تتيه النعامة بندرتها وريشها الغالى الفاخر، لكن الحمامة تفحمها بتذكيرها بأنها جبانة وبلا شهامة حين تدفن رأسها فى الرمل ساعة الخطر، وتنبهها إلى أن الحمامة تطير عاليًا، وأنها رمز للسلام..

ونورد الكلمات والرسوم فى الصفحات التالية:

أخلاقيـــات

كاوبوى !

○ عيـال زى أبـطال السيـبا مـاسكـين نبلة وبنـدقيـة
○ وبيلعبـوا مـع بعض لعبـة العسكـر والحـراميـة
○ وبدال ما يقلدوا البطولة، بيقلدوا المشاهد الإجـرامية
○ لو كان الأهل يلهوا الولاد بلعبة ريـاضية والا فنيـة
○ مش كـانوا لمـا يكبـروا يفيـدوا البلد والإنسـانيـة ؟؟

الطبع غلاب

○ لو جابوا ديب من أشطر أنواع الدياب
○ وحبوا يدربوه على أصول اللياقة والآداب
○ ويعلموه فى كل يوم ألفين كتاب وكتاب
○ لازم يرجع لأصله ويحن لشريعة الغاب
○ وينهش لحم اللى علموه بالضوافر والأنياب

حوار بين طائرين

○ نعامة قالت للحمامة.. أنا صنفى نادر وانتى زيك يامه
○ وريشى غالى وفاخر. وشكلى فى منتهى الفخامة
○ قالت لها الحمامة، لو كان عندك شوية شهامة
○ ماكنتيش تخبى راسك كل ما تعوزى السلامة
○ أما أنا.. فدايمًا طايرة جنب السحاب والغمامة
○ وح أفضل كده رمز السلام.. لحد ما تقوم القيامة

بيكار يخاطب
الأبناء والآباء معًا

وبيكار لا يستطيع أن يرفع أصبعه عن الجرح..

والجرح هنا هو «أطفالنا».. الذين يفتقرون إلى أهم مقومات تكوينهم وتنشئتهم، لذلك كثيرًا ما يتجه بكلماته مباشرة إليهم، ينبههم ويلفت نظرهم إلى ما يجب عليهم، ويقدم ذلك فى صورة نصيحة..

نصيحتى يا ابنى تفرقش بين الألوان ولا الأجناس
وافرد دراعك وبالأحضان بارك جميع الناس
وصب شهد الحب واملا الحفان والقلوب والكاس
واحرق فؤادك بخور، وبعطره عطّر الأنفاس
وان كنت عايز تكره: اكره الغل واضربه بالفاس

ويتكرر ذلك من بيكار بالقلم والفرشاة، مجسدًا القيم التى يرى أنه من الضرورى أن يتبناها الأبناء ويعتنقونها..

نصيحتى يا ابنى.. لا تجرى ولا تمشى على مهلك
واضحك قوى للدنيا، علشان الدنيا تضحك لك
وابعد عن رفاق السوء حتى لو كانوا من أهلك
ولو صابك فى يوم الغرور، افتكر أن التراب أصلك

وكثيرًا ما يزاوج بيكار فى كتاباته ما بين الأبوة والبنوة، وهو يعرف

القيمة الحقيقية لهذه العلاقة البالغة السمو، لذلك كثيرًا ما يعزف عليها، ويرتفع بها إلى قمم شماء...

ضحى «إبراهيم» بابنه علشان رضى مولاه
وكان فؤاده مطهره بحب الإله وملاه
علشان كده سماه «خليل» وفى أعلا مقام علاه
والطاعة رمز الحب.. وأجمل حب حب الله

وهو أيضًا فى مقطوعاته هذه يزاوج أيضًا بين الكلمة والرسم.. ولا يفوته فى بعض الأحيان أن يذكر الآباء بواجباتهم حيال أبنائهم فى هذا العصر الذى تكالبت فيه المغريات على الأجيال الجديدة، فشدت أنظارها نحو أمور لا نرتضيها لهم، ولا نقبلها منهم، لذلك يلفت نظر «الأهل» إلى تحمل مسئولياتهم فى هذا الصدد..

وربما كانت مقطوعة «كاوبوى» أفضل مثال ذلك، ونقدمها مشفوعة برسمها البديع..

بيكار...
رسامًا لكتب الأطفال

ويرى بيكار أن «كتب الأطفال الحديثة هى فى الواقع معارض متجولة، يشاهد فيها الطفل أحدث الاتجاهات والمدارس والمذاهب الفنية، برحب بها خياله المتفتح دون تحفظ، ويتعرف بها على لغة العصر فى المجال الفنى»..

ويضيف «ولعل تعدد الأساليب التى تطالع الطفل على صفحات

وأغلفة مختلف الكتب التى يقرؤها، وتعدد أسماء الفنانين الذين سيتعرف عليهم عند مشاهد رسومهم، سوف يفتح أمامه آفاقًا جديدة للتذوق الفنى، وسوف تتيح له فرصة للمقارنة والمفاضلة واختيار الأنسب والأقرب إلى ذوقه ومزاجه، كما ستتيح له فرصة التعرف على المذاهب الفنية المعاصرة بشكل غير مباشر عن طريق الرؤية وحدها، فتترسب فى أعماقه كثير من مزاياها، وبذلك تتم المسايرة للركب الحضارى منذ البداية، وتنشئة المواطن الصالح بين أحضان الجمال والفن الرفيع».

وألقى الفنان بيكار نظرة عاجلة على الحصيلة الفنية المحدودة التى تتضمنها مكتبة الطفل – حتى مطلع عام ١٩٧٠ – فوجد أنها تنقسم إلى عدة أساليب:

* أسلوب واقعى يناسب الكتب التاريخية والدينية والعلمية والرياضية، وتميز بها على سبيل المثال لا الحصر الأستاذان: كامل مصطفى، ومحمد قطب.

* وأسلوب زخرفى يصلح للأساطير الخيالية والشعبية، تميز به الفنانون محمد التهامى ويوسف فرنسيس، ومصطفى حسين.

* وأسلوب كاريكاتيرى ساخر يناسب الحكايات الفكاهية والموضوعات المرحة، وقد برع فيه الفنانان محيى اللباد، وإيهاب شاكر.

.. ولم يتحدث بيكار عن نفسه، لكنه ترك رسومه تتحدث عنه كواحد من الرواد فى هذا المجال، وقد ظهرت هذه الرسوم فى مجلة سندباد، فى سنة ١٩٦٣ (رحلات سندباد) بأجزائها الأربعة، وقد نال عليها المرحوم محمد سعيد العريان، أول جائزة للدولة فى أدب الأطفال فى بلادنا، وفى

هذه القصص التقى نص أدبى ممتاز، مع رسوم فذة، ولو أن أحدًا عكف على دراسة هذا العمل: أدبيا لكشف عن قيم جمالية بالغة الروعة، جعلت هذه الأعمال تنفذ من الأسواق، دون أن يصاحب هذا إعلام أو إعلان.. وقد اشتهرت فى الأربعينات والخمسينات صورة «سندباد» بريشة بيكار، وعرف الأطفال هذه الشخصية المستمدة من أدبنا العربى، وتجسدت فى أذهانهم، واشتهر سندباد بعمامة كبيرة، وسروال مخطط، وقميص يصل إلى ما تحت الركبة، وعلى وسطه حزام عريض، وفوق كل هذا سترته.. وكان يحمل معه منظاره الطويل الذى يضعه على إحدى عينيه، وكان يحمل عصاه على كتفه، وتتدلى منها وراء ظهره صرة يحمل فيها حاجياته التى يستعين بها على أسفاره البعيدة وهو يلبس فى قدميه خفين طريفين، وكان بجانبه دائمًا كلبه الأبيض اليقظ، وله ذيل أسود، وكذلك أذناه المنتصبتان.. وكان وجه سندباد صبيحًا مليحًا، يمتلئ دومًا بالتعبيرات المتباينة التى تقتضيها المواقف المتوالية فى القصة.. ولا أظن أن شخصية عربية لقيت من أطفالنا ما لقيته شخصية سندباد، وكان من الممكن أن تعيش حياة أطول، لولا أن المجلة توقفت إذ لم تتطور، ولم تساير الزمن، كما أن كاتبها وافاه أجله المحتوم.. رحمه الله بقدر ما أسدى لأدب الأطفال من فضل.

وقد استوحى العريان هذه الشخصية من رحلات سندباد السبع فى ألف ليلة وليلة، وجعلها فى عمر صغير يتناسب مع عمر قرائه، وألف لها مغامرات استساغها الأطفال وأحبوها، على الرغم من أن لغتها فوق مستواهم، وكذلك أسلوبها، وتراكيب عباراتها، وجملها الطويلة.. لكن الرسوم كانت جذابة وبسيطة وممتعة، اجتذبت الصغار إليها، ويسرت لهم

قراءة القصص، كما فتحت أعينهم على الطراز العربى القديم من الثياب. والأثاث، والبناء، والأدوات، وحببت إليهم البحر والمغامرة واستمر تعلق الأطفال بهذه الشخصية حتى بعد أن كبروا، وهم يتحدثون عنها فى حب شديد، إذ تمثل هذه المرحلة من العمر التى طالعوها خلالها، ويطالبون دومًا بأن تعود المجلة والشخصية، حتى لو كتبها آخرون.. وليس من عيب فى ذلك، فإن «فرانك يوم» كتب عن ساحر أوز تسعة عشر عملاً، وتلقفها من بعده من وصل بها إلى أكثر من خمسة وعشرين كتابًا.

والسؤال: هل كتب بيكار بنفسه قصصًا لسندباد، وقد عاش هذه الشخصية طويلاً؟!.. إن إعجاب الأطفال بها، وتقمصهم لها خلال القراءة، وحديثهم عنها، كان لابد وأن يدفع بيكار إلى مواصلة تقديمها لهم بقلمه أو بقلم آخرين.. لكن يبدو أن حساسيتنا فى بلادنا تجاه هذه القضايا تحول بيننا وبين الكثير، بل لعلها وراء تقاعسى الشخصى عن تبنى هذه الفكرة عندما خطرت على بالى منذ سنوات..

وليت وزارة التربية تضع واحدة من رحلات سندباد الأربع، برسوم بيكار، بين أيدى أبنائنا فى المرحلة الإعدادية للقراءة الحرة، وأقطع أنهم سيحبونها كثيرًا ويستمتعون برسومها.. إنها كلاسيكية عربية تستحق منا الرعاية والاهتمام..

بيكار مؤلفًا
ورسامًا للأطفال

فى سلسلة الكتاب العجيب التى كانت تصدر عن دار المعارف بإشراف الفنان حسين بيكار صدرت قصة الدجاجة السوداء من تأليفه ورسمه.. والقصة تدور حول ديك يعيش مع فرختين: حمراء، وسوداء.. الحمراء باضت الكثير من البيض، رضى عنها الديك - هى منجبة منتجة - أما الفرخة السوداء فبكت وطلبت من الله أن يرزقها الكثير من البيض.. وخرجت تبحث عن طعام، وتنزهت فى حديقة جميلة كلها أزهار ملونة. أعجبتها الألوان ونسيت حزنها.. وطلبت من الله أن يرزقها بأفراخ ملونة كالزهور، باضت سبع بيضات، وظنتها قليلة، غير أنها فقست عن كتاكيت، لكل كتكوت لون يختلف عن الآخر، تمامًا كالأزهار. ما أجملها. جاءت المعزة، والوزة، والأرنب والفأر، لمشاهدة الأفراخ، وليهنئوا الفرخة السوداء. سُرَّ الديك كثيرًا لجمال الأفراخ، واعتذر للدجاجة السوداء لأنه تركها وحدها.. شعرت الفرخة الحمراء بالغيرة، ورغبت فى أن تجعل كتاكيتها ملونة. فدفعت بهم إلى أوانى مليئة بالألوان.. كاد أحدها يغرق. أنقذته بأعجوبة. ندمت على ما فعلت. رضيت بنصيبها، وحرَّمت أن تحسد غيرها..

هذا هو مجمل القصة وكان فى استطاعتنا نقلها كما هى، لكن الرسم أضفى عليها جمالاً خلابًا، فالواضح من النص أن البطل لم يكن

«الدجاجة» بل هو «اللون» وذلك أمر لا يدهشنا من فنان تشكيلى... أما القيم التى حاول أن يودعها ثنايا القصة فهى كثيرة.. جانب منها معرفى، وجانب أخلاقى.. قد لا يرضى البعض عن ديك زوج لدجاجتين، لكننا فى عالم الطيور والحيوان، ولسنا فى عالم البشر.. وقد يرى البعض فى القصة، تشجيعًا على زيادة الإنجاب، وهذا أيضًا لا بأس به فى مجال الطيور، إذ أن تنظيم الأسرة لا يعنى إلا ذلك على وجه التحديد فى دنيا الحيوان والطيور، ويبرز بيكار عو مل وقيمًا سلبية يلغيها كالغيرة والحسد.. وينبه إلى قيم أخرى إيجابية كالصبر والدعاء.. وفيها مشاركة من جانب الحيوانات للدجاجة السوداء فى فرحتها بأفراخها.. إنها بدون شك قصة جميلة للسن التى كتبت لها، وهى سن قد لا تتجاوز التاسعة.. ثم لا يفوتنا مثلاً أنه انتصر للدجاجة السوداء!، ونستطيع بلا جهد أن نجد فى كل سطر، بل وبين ثنايا السطور أشياء جميلة وكثيرة، تزرع فى نفس الصغير الأمل، وتنفض عنه الألم، فهو لم يشر مثلاً إلى هزيمة الدجاجة الحمراء بقسوة، لكنه عاقبها على الحسد و لغيرة، حتى اضطرها فى النهاية بالرضا بما قسم لها، وقد تكون قيمة تربوية وقد تكون قيمة احتياطية!! وهذه فى حد ذاتها قيمة.. والقراءة الثانية، والثالثة، كما أن الدراسة المتأنية سوف تكشف لنا عن عناصر أخرى ليس من هدفنا الآن البحث عنها، لكن القصة بدون شك ممتعة، نصًا.. وحين تتضافر الفرشاة مع الكلمات نصل إلى عمل بالغ الروعة، إذ تذهلنا التعبيرات الفنية التى اتسمت بها الرسوم، فالغلاف يحمل صورة الدجاجة السوداء، وكتاكيتها الملونة. والصفحة الأولى، الديك مزهو، يسير بفرح مع الدجاجة الحمراء وتحت أقدامها بيضها الكثير، بينما ظهر الانزعاج على الدجاجة السوداء فى

الصفحة المقابلة.. هى تنظر إليها فى غيرة، وتكاد قدماها لا تحملانها، وكأنها ناءت بما ترى.. ويتنزه الديك مع الدجاجة الحمراء وهى فى مرح ودلال تلقى بنفسها عليه، بينما تتساقط دموع الدجاجة السوداء.. ونشاهدها بعد ذلك فى الحديقة، وقد نسيت همها أمام جمال الزهور وألوانها.. وبعد قليل نراها مذهولة مزهوة بأفراخها الملونة.. ونجد أنفسنا أمام لوحات معبرة عن المواقف أصدق تعبير.. والجميل فى القصة، والرسم أنهما متناسقان، كأنهما ضفيرة واحدة، كما أنهما يتمشيان مع المرحلة العمرية التى كتبت من أجلها السلسلة، والكتاب.. الأمر الذى يؤكد عميق فهم القصاص الرسام، لميول الأطفال ورغباتهم، واهتماماتهم فى هذه السن المبكرة، كما تثبت إحساسه وإدراكه لاحتياجاتهم الضرورية إلى قيم تترسب فى نفوسهم، ويستعين عليهم بالقلم والفرشاة معًا، دون أن يفوته تعميق إحساسهم بالجمال، وتثقيف أعينهم جنبًا إلى جنب تثقيف عقولهم وتنميتها.. نحن أمام قصة فيها كل العناصر المطلوبة لقصة أطفال فى هذا العمر، كما أننا أمام معرض فنى، يجد الطفل نفسه فى حاجة إلى أن يتوقف أمام كل لوحة، إذ يشده الرسم المتقن، والألوان المنتقاة بدقة، الجمال المتدفق إلى العيون والقلوب معا.. إن القصة واللوحة يعطيان نفسهما للقارئ والمشاهد فى ذات اللحظة وبذلك يعمق الأثر ويبقى طويلاً، وقلما يزول.. وأشك كثيرًا فى أن طفلاً قرأ وشاهد رسوم الدجاجة لسوداء يمكنه أن ينساها، ولى تجربة مع «أحمد» الصغير ابن الست سنوات الذى ظل يحدق طويلاً فى لوحة الدجاجة الباكية: اهتزته من الأعماق.. وكم سعد وتهلل فى صفحتى منتصف القصة والدجاجة السوداء بين أفراخها، والحيوانات تقدم لها التهنئة، وتشاركها الفرحة..

وبدورنا، لا نملك إلا أن نقدم للقصاص الفنان: التهنئة (غير قادرين على أن نشفعها بألوانه الأخاذة، الفريدة، المعبرة..

وتضم قائمة كتب الأطفال الصادرة عام ١٩٧٥ عدة كتب كتبها ورسمها الفنان بيكار:

* الدجاجة السوداء	(سلسلة الكتاب العجيب)	٢٦ صفحة ١٩٦٣
* خروف العيد	(سلسلة الطفل السعيد)	٨ صفحات ١٩٦٤
* مرزوق والسمكة	—	١٤ صفحة ١٩٧١
* مغامرات بسبوس	—	١٤ صفحة ١٩٧١

وقد اكتفينا بالدجاجة السوداء.. نصًا ورسمًا.. كنموذج لما أبدعه بيكار بالقلم والريشة، متسائلين عن السر فى إحجامه على مدى السنوات العشر الأخيرة عن الكتابة والرسم للأطفال، وقد أودع الله حبهم فى قلبه، كما أنهم استجابوا بحماسة منقطعة النظير لما كتبه ورسمه.. وكثيرون فى مجال الطفل جمعوا بين الأمرين، وسجلوا نجاحات على مستوى العالم فى المجالين معًا، ويطيب لى أن أشير إلى عدد منهم، حازوا جائزة هانزاندرسون العالمية، وجائزة فيوبرى وكالدكوت الأمريكيتين فى الكتابة والرسم..

... وبعد

لعل حفاوتنا ببيكار - رسامًا للأطفال وكاتبًا - تكون المناسبة التى تتبوأ فيها رسوم كتب الأطفال مكانتها الحقيقية، ولعل هذه الفرصة تتاح، لكى ندرك أن الصغير بحاجة ماسة إلى الفن، بقدر حاجته للأدب.. وقد جاء الاعتراف بالرسوم - فى مجال الأطفال - متأخرً

بعض الوقت عن الاعتراف بالأدب.. إن جائزة نيوبرى الأمريكية الخاصة بالكتابة بدأت عام ١٩٢٢، بمنحها للكاتب فاندريك فان دى لون.. ولم تأت الجائزة المواكبة لها فى مجال الرسم إلا فى عام ١٩٣٨.. كما أن جائزة هانز أندرسون العالمية، التى تمنح مرة واحدة كل سنتين على المستوى الدولى، فى مجال أدب الأطفال - بدأت عام ١٩٥٦ ونالتها اليانور فريجون البريطانية، أما فى مجال الرسوم فإنها منحت لأول مرة فى عام ١٩٦٦، وكانت من نصيب اليوس كاريجى من سويسرا..، ولعلنا نفكر فى جائزة الدولة لرسوم كتب الأطفال، بعد أن تقرر منحها لأول مرة فى أدب الأطفال عام ١٩٦١، وأملنا كبير فى ألا يتأخر منح هذه الجائزة أكثر من هذا.. كما نتطلع فى هذه المناسبة إلى اهتمام أكبر برسوم كتب الأطفال المدرسية، وغير المدرسية من أن يفتحوا عيونهم على الجمال، ويدربوها على التذوق، فمما لا شك فيه أن هذه الرسوم متحف ومعرض متنقل كما قال الفنان بيكار.. أمد الله فى عمره ومتعه بالصحة.. وله أطيب تمنياتنا..

المراجع

الكتب:

- صور ناطقة حسين بيكار (كتاب اليوم - دار أخبار اليوم)
- الرسم بالكلمات حسين بيكار (كتاب اليوم - دار أخبار اليوم)
- ديك برونا (دلر الشايع - الكويت)
- رحلات سندباد - محمد سعيد العريان - رسوم بيكار (دار المعارف)
- الفن الحديث: محاولة للفهم (سلسلة اقرأ) د. نعيم عطية (دار المعارف)
- مجلدات جائزتى كالدكوت ونيوبرى فى أمريكا عن الأعوام: من (١٩٢٢-١٩٥٥) و(١٩٥٥-١٩٦٥) و(١٩٥٦-١٩٧٥) (طبع دار هورفى بورك - بوستن)

الدوريات:

١ - مجلة الكتاب العربى
... عدد خاص عن كتب الأطفال (يناير ١٩٧٠)
مقال كتب الأطفال وأغفلتها.

٢ - مجلة الكواكب
... عدد صادر فى سبتمبر ١٩٨٢
حديث مع الأستاذ عزت الأمير.

٣ – مجلة الثقافة

... عدد شهر أغسطس ١٩٨٢

حديث مع الدكتور صبرى منصور.

٤ – مجلة الرائد (تصدر بالكويت)

... عدد سبتمبر ١٩٨١.

مقال عن بيكار لصاحب البحث.

٥ – محمد سعيد العريان فى ذكرى مولده الخامس والسبعين (محمد كامل حتة) (... مجلة الثقافة.. فبراير ونوفمبر ١٩٨٢).

مخطوطات

رسالة خاصة من الفنان بيكار إلى صاحب الدراسة (٥/١١/١٩٨١)

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٥٤٩١
الترقيم الدولى	977-02-3372-2 ISBN

١ / ٩١ / ١١٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)